الفصل الخامس

مادة الحلم ومصادره

عندما تبين لنا من تحليل حلم حقنة إرما أن الحلم تحقيق رغبة ، اتجه كل اهتمامنا بادئ ذى بدء إلى أن نعرف هل هذه خاصة مشتركة بين الأحلام جميعا، وفى خلال ذلك أخمدنا كل تطلع علمى آخر كان يمكن أن يثار ونحن نقوم بعمل التفسير . ويحق لنا الآن — وقد بلغنا من هذا الدرب نهايته — أن نقفل أدراجنا ، وأن نختار موضعا آخر نبدأ منه استكشافاتنا فى مشكلات الحياة الحالمة ، وإن اضطرنا ذلك إلى أن نتناسى بعض الوقت مشكلة تحقيق الرغبة التى لم نزل بعيدين عن استيعابها .

فمن الطبعى — وقد أمكننا بتطبيق منهجنا فى التفسير أن نرفع النقاب عن محتوى كامن للحلم تعدو قيمته قيمة المحتوى الظاهر بآماد وآماد — أن تكون المهمة التى تعجلنا الآن هى أن نتناول مشكلات الحلم من جديد واحدة فواحدة ؛ لكى نرى إذا كانت الألغاز والمتناقضات التى لاحت لنا متعذرة ونحن لا نعرف من الحلم غير ظاهره تلقى الآن عندنا حلا مرضيا .

ولقد فصلنا الحديث — فى الفصل الذى قدمنا به هذا الكتاب — عن آراء المؤلفين السابقين فى علاقة الحلم بالحياة المستيقظة وفى منشأ مادته . وإنا لنذكر هذه الخصائص التى تتميز بها الذاكرة فى الحلم والتى لاحظها المؤلفون كثيرا ، دون أن يوضحوا أمرها قط :

١ — أن الحلم يؤثر انطباعات الأيام الأخيرة إيثارا ظاهرا (رو برت ، شتر ومپل ، هيلدبرانت ، ويد ، هالام .)

٢ — أنه ينهج فى اختياره على مبادئ تختلف من تلك التى تنتهجها ذاكرتنا المستيقظة من حيث كونه لا يختار ما هو جوهرى وهام ، بل الثانوى وغير الملحوظ .

٣ — أنه يملك استحضار انطباعات ترجع إلى طفولتنا المبكرة ، بل يستعيد من تلك الفترة من حياتنا تفاصيل تبدو لنا على جانب كبير من التفاهة ، وكنا نعتقد ونحن

مستيقظون أننا قد نسيناها منذ زمن طويل[١] .

وغنى عن البيان أن جميع هذه الخصائص التى يتميز بها اختيار مادة الحلم إنما لاحظها المؤلفون بصدد محتوى الحلم الظاهر وحده .

أ

الحديث والتافه فى الحلم

إذا استرشدت خبرتى الشخصية فيما يتصل بمنشأ العناصر التى تدخل فى محتوى الحلم ، لم أجد مناصا من أن أقرر ، بادئ ذى بدء، أنه ما من حلم يخلو من بعض الصلة بأحداث اليوم الذى انقضى. وما من حلم تناولته بالبحث ، سواء أكان من أحلامى أم كان من أحلام غيرى ، إلا أيد عندى هذه الخبرة الشخصية . وفى مكنتى — وقد علمت هذه الحقيقة — أن أبدأ تفسير الحلم بالبحث عن حدث اليوم السابق الذى حرك إليه ، بل تلك فى الحقيقة هى الطريق الأقصر فى كثير من الحالات . والحلمان اللذان فصلت تفسيرهما فى الفصول السابقة (حلم حقنة إرما وحلم عمى ذى اللحية الصفراء) تتضح فيهما هذه العلاقة باليوم السابق اتضاحا لا نحتاج بعده إلى توضيح. ولكنى أورد هنا بعض الأمثلة أنتخبها من سجل أحلامى الخاصة؛ لكى أبين كيف يمكن التثبت من هذه العلاقة على نحو مطرد . ولن أروى هذه الأحلام إلا بالقسط الذى أحتاج إليه من أجل الكشف عن مصدرها الذى نبحث عنه .

١ — أزور منزلا لا أستطيع دخوله إلا بعد صعوبات . . . إلخ . ، وفى هذه الأثناء أدع سيدة تنتظرنى

المصدر : محادثه مساء أمس مع إحدى قريباتى : إن عليها أن تنتظر حتى تستلم سلعا اشترتها . . . إلخ .

٢ — كتبت بحثاً خاصا بنوع (غير واضح) من أنواع النبات .

---

(١) من البين أننا لا نستطيع أن نأخذ بفكرة روبرت القائلة بأن غاية الحلم هى تخليصنا من الانطباعات غير النافعة المتخلفة من النهار ، إذا كانت الصور الذكروية المستمدة من طفولتنا تتردد فى الحلم أى تردد ؛ وإلا كان معنى ذلك أن الحلم إنما يقوم بوظيفته تلك على نحو ناقص جداً .

المصدر : رأيت فى الضحى بحثا خاصا بفصيلة السيكلامين فى عارضة إحدى المكتبات .

٣ – أرى فى الطريق امرأتين : أما وابنتها ، والأخيرة منهما مريضة من مرضاى .

المصدر : حدثتنى البارحة إحدى مريضاتى عن الصعوبات التى تقيمها أمها فى طريق استمرارها فى العلاج .

٤ – أجريت بمكتبة س . اشتراكا فى إحدى الدوريات ، وكانت قيمة الاشتراك عشرين فلورين سنويا .

المصدر : ذكرتنى امرأتى أمس نهارا أننى لا أزال أدين لها بعشرين فلورين من مصروف الأسبوع الماضى .

٥ – تلقيت رسالة من لجنة الحزب الاشتراكى الديموقراطى ، وفى هذه الرسالة وجه إلى الكلام باعتبارى عضوا .

المصدر : كنت قد تلقيت فى وقت واحد رسالتين : إحداهما من اللجنة الانتخابية لحزب الأحرار والثانية من جماعة الإخاء الإنسانى التى أنا عضو فيها حقيقة .

٦ – رجل يقف على صخرة فى عرض البحر على أسلوب بوكلين (١) .

المصدر : دريفوس فى جزيرة الشيطان ، وفى الوقت نفسه أنباء من أقاربى المقيمين بانجلترا ، إلخ .

وقد نسأل : ألا تكون صلة الحلم إلا بأحداث اليوم الذى يسبق الحلم مباشرة ، أم هى قد تمتد إلى فترة أطول من فترات الماضى القريب؟ الراجح أن ذلك سؤال لا ينطوى على كبير أهمية نظرية ، ومع ذلك أرانى أميل إلى الأخذ بأحقية اليوم الأخير (ولنسمه يوم الحلم) أحقية مانعة . فكلما خيل إلى أن مصدر الحلم كان انطباعا يرجع إلى ما قبل الحلم بيومين أو بثلاثة أيام ، أمكننى بإكتاب النظر أن أقتنع بأن ذلك الانطباع قد تمثل للذاكرة يوم الحلم ، أى أن استحضارا بَيِّنا قد وقع فى خلال اليوم الذى يسبق الحلم مباشرة فتوسط بين يوم الحدث ووقت الحلم ، وأمكننى فوق ذلك أن أبين ما هى المناسبة الحديثة التى ربما كانت السبب فى تذكر هذا الانطباع الأقدم. بيد أننى – من جهة أخرى – لم أر ما يقنعنى بوجود أية فترة منتظمة ذات مغزى بيولوجى بين الانطباع النهارى المهيج ورجوعه

(١) [أسلوب بوكلين هو الرومانسية المغرقة ، فالصخور التى أكثر من رسمها صخور تعلوها أليهات البحر وعرائسه فى بحر عاصف متلاطم الأمواج ، صخور " ڤاجنريه " – إن جاز التعبير .]

فى الحلم (وكان سفوبودا قد ذكر أن أول فترة من هذا القبيل تستغرق ثمانى عشرة ساعة [١]). وكذلك أعلن هافلوك إليس الذى أولى أيضا هذه المسألة انتباهه أنه عجز عن أن يعثر فى أحلامه على مثل هذا الاستحضار الدورى المنتظم « رغم البحث عنه » . وهو يروى حلما أى فيه أنه يسافر فى أسبانيا وبغيته مكان يدعى : داراوس أو فاراوس أو زاراوس . فلما استيقظ عجز عن أن يذكر مكانا له مثل هذا الاسم وصرف النظر عن الحلم . ثم ثبت له بعد ذلك بشهور قلائل أن زاراوس حقيقةً اسم لمحطة تقع بين سان سباستيان وبيلباو ، وكان قد مر بها فى القطار قبل تاريخ الحلم بمائتين وخمسين يوما .

---

(١) (١٩١١ :) لقد حاول هرمان سفوبودا – على ما ذكرته فى كلمة ألحقتها بالفصل الأول (ص ١٢٥) أن يطبق على مجال الأحداث النفسية بوجه عام فكرة الدورات البيولوجية المولفة من ٢٣ و ٢٨ يوما والتى اكتشفها ڤيلهلم فليس (عام ١٩٠٦) . وهو يؤكد بوجه خاص أن هذه الدورات هى التى تحتم انبعاث العناصر التى تظهر فى الحلم . ولو قد ثبتت صحة هذا الرأى ، لما غير ذلك من تفسير الأحلام تغييراً جوهريا ، كل ما هنالك هو أننا نكون اكتشفنا بذلك مصدراً جديدا من مصادر مادة الحلم . ومع هذا قمت حديثا ببحث عدد من أحلامى ؛ بغية التحقق من صدق " نظرية الدورات " عليها ، واخترت من أجل هذا الغرض عناصر حلمية تلفت النظر بنوع خاص ، أمكن التيقن من تاريخ ظهورها ، فى الحياة الواقعة .

١ – حلم ١ – ٢ من أكتوبر ١٩١٠ .

(نبذة) . . . فى مكان ما بإيطاليا . ثلاث ابنات يرينى تحفا صغيرة الحجم – كما لو كان ذلك فى دكان آثار . وهن جالسات فى حجرى . أقول بصدد إحدى القطع : لقد أخذتن هذه منى . وبينما أقول ذلك أرى قناعا يمثل جانب وجه " سافونا رولا " بتقاطيعه الحادة .

متى رأيت صورة «سافونا رولا» المرة الأخيرة؟ تقول مذكرة رحلاتى : إنى كنت بفلورنسا فى الرابع والخامس من شهر سبتمبر . وهناك خطر لى أن أرى رفيقى فى الرحلة الحفر الذى يحمل ملامح ذلك الراهب المتعصب فى [الميدان المسمى] Piazza Signoria ، بالبقعة التى لقى فيها الموت حرقا . وأظن أنى جذبت انتباهه إليه فى صباح اليوم الخامس من شهر سبتمبر . فالفترة المنقضية بين هذا الانطباع وبين تكرره فى الحلم هى يقينا : ٢٧ + ١ يوما – وهى مدة " الدورة الأنثوية " على حسب فليس . [لاحظ الخطأ فى هذه الحسبة . ولقد وضع ستراشى " الثالث من سبتمبر " بدل " الخامس " ونبه إلى أن " الخامس " خطأ مطبعى ورد فى الطبعات الحديثة . ومن شأن تعديله هذا أن يصلح الحسبة ، ولكنه من جهة أخرى لا يستقيم وما ورد من إشارة المذكرة إلى وجود فرويد بمدينة فلورنسا فى الرابع والخامس من سبتمبر] . بيد أننى – لسوء حظ القيمة البرهانية التى لذلك المثال – لا أجد بدا من أن أضيف أنه قد اتفق يوم الحلم نفسه أن زارنى زميل قدير لكنه ذو طلعة متقطبة ، كنت ألقبه منذ سنوات " سيدى الحاخام سافونا رولا " . وقدم لى زميلى مريضا نكبته حادثة نزلت بقطار بونتبا السريع – وهو القطار الذى كنت سافرت فيه منذ أسبوع – فرجع ذلك بذاكرتى إلى رحلتى الأخيرة فى إيطاليا . وهكذا نرى أن ورود ذلك العنصر الذى يلفت النظر " سافونا رولا " فى محتوى الحلم تعلله زيارة زميلى يوم الحلم بينما تفقد فترة الثمانية والعشرين يوما كل مغزاها .

٢ – حلم ١٠ – ١١ من أكتوبر .

أدرس الكيمياء من جديد بمعمل الجامعة . يدعونى الأستاذ ل . إلى مكان ما ويقودنى فى أحد الأروقة ممسكا

وعلى ذلك أعتقد أن لكل حلم حافزا نجده بين تلك الخبرات التى «لم ينقض عليها الليل بعد».

أمامه بمصباح أو بآلة أخرى رفعها بيده المنتصبة وقد امتد رأسه إلى الأمام هيئة خاصة ، ولاح كن ينظر فى نفاذ (؟) (إلى بعيد ؟) . ثم بعد ذلك نصل إلى مكان فضاء ... (نسيت البقية) .

إن أكبر ما يستوعى الانتباه من محتوى هذا الحلم هو الطريقة التى حمل بها الأستاذ ل. المصباح (أو المدسة) أمامه وقد أنفذ بصره إلى بعيد . ولم أكن رأيت ل . منذ سنوات متعددة ، ولكننى أدرك على الفور أنه إنما كان شخصا بديلا حل محل آخر يعلوه شأنا ، محل أرشميدس . . الذى انتصب تمثاله بالقرب من نافورة أريتوزا ، فى سيراقوسة ، وقد اتخذ تلك الهيئة عينها : ممسكا مرآته المحرقة بيده ، مادا بصره إلى الجيش الرومانى المحاصر . فمتى رأيت هذا التمثال للمرة الأولى (والأخيرة) ؟ رأيته — على حسب مفكرتى — فى مساء اليوم السابع من سبتمبر ، وبين ذلك اليوم ووقت الحلم قد انقضى حقيقة ١٣ + ١٠ = ٢٣ يوما — وهى " الدورة المذكرة " بحسب فليس .

بيد أن من سوء الحظ أننا لا نتعمق تفسير الحلم حتى نرى هذا الاتفاق أيضاً جزءا يفقد من قوته البرهانية . فقد كانت المناسبة التى حفزت إلى الحلم نبأ سمعته يوم الحلم ، كان مؤداه أن العيادة التى كنت أستضاف للمحاضر بقاعتها قد أوشك نقلها إلى مكان آخر . وقدرت أن المكان الجديد لن يكون إلا بجهة متطرفة جداً وقلت لنفسى : وما الفرق بين ذلك وبين ألا تكون لى قاعة أحاضر فيها على الإطلاق ؟ وكان لزاما أن ترجع بى الذاكرة عند ذلك إلى أيام بدأت حياتى كمحاضر بالجامعة حين كنت حقيقة لا أجد قاعة أحاضر فيها ، وحين لم تكن جهودى من أجل الحصول على قاعة تصادف إلا القليل من ترحيب أساتذة الجامعة وأصحاب كراسيها الذين كان بيدهم السلطان. وأذكر أنى ذهبت إذ ذاك إلى ل . — وكان عميداً وقتئذ وكنت أعده حاميا — لكى أشكو إليه حاجتى . فوعدنى بالعون ، ثم لم أسمع منه بعد ذلك شيئا . وهو فى الحلم أرشميدس يعطينى Pou stô [مكانا أقف فيه ، باليونانية] ، ويقودنى بنفسه إلى المحل الجديد . فأما أن رغبة الانتقام والشعور بالعظمة لا يغيبان عن أفكار هذا الحلم — فذلك ما يسهل تخمينه على كل عارف بالتفسير . وإنما الذى أريد أن أقوله هو أن أرشميدس ما كان ليجد طريقه إلى الحلم فى هاته الليلة لولا تلك المناسبة . كما أننى لست واثقاً من أن ذلك الانطباع القوى ، الحديث العهد بعد ، الذى أثاره فى نفسى تمثال سيراقوسة — لم يكن يستطيع أن يحدث كذلك أثره فى نفسى بعد فترة مختلفة من الزمن .

(٣) حلم ٢ — ٣ أكتوبر ١٩١٠ .

(نبذة) . . . شىء عن الأستاذ أوزر الذى وضع بنفسه قائمة الأطعمة التى يجب أن أتناولها ، وهو ما يدخل على نفسى ارتياحا كبيرا (وأشياء أخرى نسيت) .

هذا الحلم استجابة بإزاء اضطراب هضمى جعلنى أفكر فى ضرورة الالتجاء إلى أحد زملائى لكى يقرر نظام التغذية الذى يجب أن أتبعه . وأما كونى قد اخترت لأجل ذلك الغرض الأستاذ أوزر الذى مات فى خلال الصيف فير جع السبب فيه إلى موت مدرس جامعى آخر كنت أعجب به أشد الإعجاب ، وكان موته قبل الحلم بزمن قليل (فى الأول من أكتوبر) فمتى مات أوزر ؟ ومتى سمعت نعيه ؟ يتضح من الصحف أنه قد مات فى الثانى والعشرين من أغسطس . وكنت فى ذلك الوقت فى هولندا ، وكانت صحف ڤيينا تصل إلى بانتظام ؛ فلا بد أنى قرأت نعيه فى الرابع والعشرين من أغسطس . ولكن هذه الفترة لا تتفق وأى من الدورتين : فهى تعدل ٧ + ٣٠ + ٢ = ٣٩ يوما ، وقد تكون ٤٠ ، واست أستطيع أن أذكر أنى تحدثت عن أوزر أو فكرت فيه فى هذه الأثناء .

وأمثال هذه الفترات التى لا يمكن التوفيق بينها وبين نظرية الدورات دون مزيد من التفنن فى الحساب — تفوق فى أحلامى كثيرا تلك التى تتفق وهذه النظرية . والعلاقة الوحيدة التى أراها ترد بانتظام هى تلك التى تصل الحلم بانطباع من اليوم السابق ، على ما أكدته فى النص .

ولا تسفر إذن انطباعات الماضى الحديث (باستثناء اليوم الذى يسبق الحلم) عن علاقة بمحتوى الحلم تختلف فى نوعها من تلك التى لغيرها من انطباعات الزمن الماضى بوجه عام أيا كان بعده . فالحلم قادر على أن يختار مادته من أى فترة من فترات الحياة ما دام ثمة خيط فكرى يصل بين خبرة يوم الحلم (أى « أحدث » الانطباعات) وبين سابقاتها .

ولكن لم خُصت أحدث الانطباعات بهذا الإيثار ؟ سوف نصل إلى تكوين رأى فى هذه المسألة إذا أخذنا حلما من الأحلام التى استشهدت بها توا [ص ١٨٧] فحللناه تحليلا أوفى . وعلى ذلك أختار :

حلم المبحث النباتى

كتبت مبحثا خاصا بنبات ما. الكتاب ماثل أمامى وأنا أدير فى تلك اللحظة صفحة مطوية رسمت فيها لوحة ملونة . ربط فى داخل كل نسخة نموذج مجفف من ذلك النبات ، كأنه مأخوذ من معشب [١] .

التحليل

كنت رأيت فى الصباح كتاباً جديداً فى واجهة إحدى المكتبات عنوانه : فصيلة السيكلامين — ومن الواضح أنه كان مبحثا خاصا بذلك النبات .

السيكلامين هو الزهرة المفضلة عند زوجتى . إنى ألوم نفسى على أنى قلما أفكر فى أن آتيها بالأزهار ، مثلما تحب . — وتذكرنى فكرة نسيان الأزهار بقصة سردتها حديثا على جماعة من الأصدقاء لكى أدلل بها على أن النسيان كثيرا جدا ما يحمل غرضا لا شعوريا وأنه يمكننا دائما من أن نستنتج ما تنطوى عليه نفس النامى من نيات مستترة. فقد ألفت امرأة شابة أن تتلقى باقة أزهار من زوجها يوم عيد ميلادها . واتفق فى سنة أنها افتقدت هذه الأمارة على الحب ، فطفقت تبكى بدمع غزير . وفيما هى كذلك أقبل زوجها ، فلم يدر سببا لبكائها حتى أخبرته أن ذلك كان يوم عيد ميلادها . فضرب جبينه بيده

---

(١) [وهو مجموعة الأعشاب المجففة .]

وصاح قائلا : إنى لآسف ، ولكنى نسيت ذلك كل النسيان . وأراد أن يخرج على الفور لكى يبحث لها عن الأزهار . بيد أنها تأبى العزاء لأنها رأت فى نسيان زوجها برهانا على أنها لم تعد تشغل من أفكاره المكان الذى كانت تشغله من قبل . — هذه السيدة ، كانت قد قابلت زوجى منذ يومين ، وأخبرتها أنها فى خير حال ، ثم سألتها عنى — وكنت قد توليت علاجها قبل ذلك بسنوات .

ثم ها هى ذى بقية جديدة : لقد كتبت مرة — حقيقة — شيئا أشبه بمبحث خاص بنبات ما ، وكان على التحديد مقالا عن نبات الكوكة جذب انتباه كارل كوللر إلى خصائص الكوكايين المخدرة [فرويد ١٨٨٤هـ]. لقد أشرت فى بحثى الذى نشرته إلى إمكانية استخدام القلوانى هذا الاستخدام ، ولكنى لم أكن من الدقة بحيث أتابع تلك المسألة[١] . وأذكر الآن أن الفكر قد ذهب بى غداة الحلم — ولم أكن وجدت متسعا لتفسيره إلا فى المساء — ذهب بى إلى الكوكايين فيما يشبه أن يكون حلما من أحلام اليقظة . لو أصابتنى الجلوكوما لسافرت إلى برلين وأجريت هناك ، فى منزل صديقى البرلينى [فليس] عملية جراحية على يد طبيب يزكيه صديقى ، دون أن يعلم الطبيب من أنا . وسوف ينوه الطبيب مرة أخرى — وهو لا يدرى على من أجرى عمليته — بمدى السهولة التى صارت تجرى بها هذه العملية منذ إدخال الكوكايين ، ولن أبدى فى خلال ذلك أقل بادرة تنم على أننى قد أخذت فى ذلك الكشف بنصيب . وساقنى هذا التخييل إلى خواطر تدور حول مدى الحرج الذى يستشعره الطبيب — مهما يكن من أمر — حين يسأل زملاءه علاجا لنفسه . ولكن جراح العيون البرلينى لن يعرف من أنا وسيكون فى وسعى أن أنقده أجره مثلما يصنع أى مريض آخر . وألحظ الآن لأول مرة ، بعد أن تذكرت هذا الحلم من أحلام اليقظة ، أنه كان يخفى وراءه ذكرى حدث بعينه : فقد أصابت الجلوكوما والدى ، فكان أن أجرى له صديقى الدكتور كونجشتاين جراح العيون عملية ، وتولى الدكتور كوللر التخدير بالكوكايين ، ولاحظ كوللر بتلك المناسبة أن هذه الحالة قد جمعت الأشخاص الثلاثة الذين أخذوا فى إدخال الكوكايين بنصيب .

وتذهب خواطرى بعد ذلك إلى المرة الأخيرة التى ذُكِّرت فيها بقصة الكوكايين هذه :

---

(١) [أنظر صفحة ١٤٠ ، ٢٨ .]

كان ذلك منذ أيام قلائل حين تلقيت نسخة من كتاب تذكارى أصدره بعض التلاميذ العارفين بالجميل احتفالا منهم بيوبيل معلمهم ومدير معملهم . وجاء فى هذا الكتاب — بين ما أحصى من مآثر المعمل — أن اكتشاف الخصائص المخدرة للكوكايين قد تم هناك على يد كوللر . إنى أرى الآن فجاءة أن حلمى كان يتصل بحدث وقع فى المساء : فقد صحبت الدكتور كونجشتاين بالذات إلى منزله ، وأخذت معه فى حديث تناول أمرا يلهبنى ذكره كلما ورد . وبينا كنت أتحدث إليه فى مدخل البيت أقبل الدكتور جارتنر [ومعناه البستانى] ومعه زوجه الشابة ، فلم أملك إلا أن أهنأهما على مظهرهما المزدهر . ولقد كان الاستاذ جارتنر أحد الذين حرروا الكتاب التذكارى الذى أشرت إليه توا ، ومن الجائز — إذن — أن يكون قد ذكرنى به . ثم إن السيدة ل . التى رويت منذ هنيهة كيف خاب أملها يوم عيد ميلادها قد عرض ذكرها أيضاً فى خلال حديثى مع الدكتور كونجشتاين — وإن يكن قد عرض فى سياق مختلف قطعاً .

وأحاول بعد أن أبين كذلك ما هى المحمات الأخرى لهذا الحلم . لقد ضُمِّن البحث نموذجا مجففاً من النبات ، كأنه معشب . إن المعشب يقودنى إلى ذكرى ترجع إلى أيام المدرسة الثانوية . فقد استدعى ناظر مدرستنا مرة طلبة الفصول العالية وأسلمهم معشب المدرسة لكى يقوموا بمراجعته وتنظيفه ؛ فقد وجدت به بعض الديدان الصغيرة — ديدان كتب . ويبدو أن ناظر المدرسة كان قليل الثقة بقدرتى على المعاونة ، لأنه لم يسلمنى إلا ورقات قليلة . ولا أزال أذكر إلى اليوم أن هذه كانت تتضمن بعض الصليبيات[1] . إن العلاقة بينى وبين علم النبات لم تكن قط بالعلاقة الحميمة . وقد حدث وأنا أؤدى الامتحان التمهيدى فى علم النبات أنى أعطيت أيضاً نباتاً من فصيلة الصليبيات لكى أقول ما هو ، فلم أحر جواباً . ولولا أن معارفى النظرية أسعفتنى ، لآلت الأمور معى مآلا سيئاً . ومن فصيلة الصليبيات أنتقل إلى فصيلة المركبات . والخرشوف يدخل بحق فى عداد هذه ، وهو الذى أستطيع يقينا أن أدعوه زهرتى المفضلة . وكثيراً ما تعود زوجتى من السوق — وهى أكثر كرما منى — حاملة إلى تلك الأزهار التى أوثرها .

أرى المبحث الذى كتبته ماثلا أمامى . هذا أيضاً يذكرنى بشىء . فبالأمس كتب إلى صديقى البصير الذى يسكن برلين [فليس] خطابا جاء فيه : « إن كتابك عن

(١) [أى من فصيلة النباتات الصليبية .]

الأحلام يشغل حيزاً كبيراً جداً من تفكيرى : إنى أراه ماثلا أمامى وأرانى أدير صفحاته . » لكم غبطته على قدرته هذه كراءٍ ! لو أنى أيضاً استطعت أن أراه ماثلا أمامى كاملا !

اللوحة الملونة المطوية . كنت وأنا أدرس الطب ضحية لدافع لاينى يدفعنى إلى تعلم الأشياء من طريق الأبحاث المقصورة على موضوع واحد دون غيرها . وكنت على الرغم من ضيق مواردى أتزود بعدد كبير من منشورات الجميعات الطبية كانت تخلبنى لوحاتها الملونة . وكنت أستشعر الفخر بهذا النزوع إلى الاستيفاء . فلما بدأت أنشر مقالاتى ، لم يكن بد من أن أرسم لوحاتها بنفسى . وأذكر أن إحداها بلغت من الركاكة مبلغاً حمل زميلا من أهل الخير على أن يسخر منى . وههنا تحضرنى — لا أدرى كيف — إحدى ذكريات الطفولة . فقد عنّ لوالدى مرة أن يعطينى مع كبرى أخواتى كتاباً حوى لوحات ملونة (وكان يصف رحلة فى بلاد فارس) لكى ندمره — وهو أمر لا يسهل تبريره من الوجهة التربوية . وكنت أبلغ من العمر إذ ذاك خمس سنوات ولم تكن أختى بلغت الثلاث . وإن صورتنا ونحن آخذان كلانا — وقد فاض بنا الحبور — فى تمزيق هذا الكتاب (وأرانى أقول : كالخرشوف ، ورقة فورقة) لهى الذكرى الوحيدة التى أذكرها من هذه الفترة من حياتى فى صورة مرئية . فلما صرت طالباً تكون عندى ولع لا يوصف بجمع الكتب وامتلاكها ، أشبه بالنزوع إلى دراسة الأبحاث ذات الموضوع الواحد ، أى هواية مفضلة (وفكرة الهواية المفضلة قد ظهرت من قبل فى صدد السيكلامين والخرشوف) . لقد صرت دودة كتب (أنظر معشب) . وقد كنت منذ أخذت أفكر فى أمر نفسى — أرجع دائماً هذا الغرام الأول فى حياتى إلى ذلك الانطباع الطفلى ، أو قل : إنى عرفت فى هذا المشهد من مشاهد طفولتى « ذكرى ستارية » لصداقتى اللاحقة بالكتب . وقد اكتشفت أيضاً بالطبع منذ تلك السن المبكرة أن غرم المرء كثيراً ما يكون فى غرامه ؛ فقد كان لى وأنا بالسابعة عشر حساب لا يستهان به عند بائع الكتب دون أن تكون لى القدرة على سداده . وكان والدى لا يكاد يقبل الاعتذار بأن نوازعى كان يمكن أن تتجه إلى ما هو شر من ذلك . بيد أن ذكرى تلك الخبرة المتأخرة من خبرات حداثتى ترجع بى دفعة واحدة إلى حديثى مع صديقى الدكتور كونجشتاين : فقد كان مثل ذلك اللوم على إفراطى فى الجرى وراء هواياتى المفضلة أحد الموضوعات التى تناولها الحديث فى تلك الأمسية التى سبقت الحلم .

وإلى هذا الحد أقف بتفسير ذلك الحلم ؛ لأسباب لا محل لذكرها ، وإنما أشير محض إشارة إلى الطريق الذى يسلم إليه . لقد تذكرت وأنا أفسر الحلم محادثتى مع الدكتور كونيجشتاين ، وتذكرتها من أكثر من وجهة . وإنى إذ أنظر فى الموضوعات التى دار بها هذا الحديث أرى معنى الحلم يتضح لى . فجميع خيوط الفكر التى تبتدئ من الحلم : الأفكار المتعلقة بأزهار زوجتى المفضلة وأزهارى ، ثم بالكوكايين وبالحرج الذى فى طلب المعالجة بين الزملاء الأطباء ، ثم بإيثارى دراسة الأبحاث المقصورة على موضوع واحد وإغفالى بعض فروع العلم مثل النبات ، كل هذه تسلم فى النهاية — إذا المرء تابعها — إلى فرع من فروع تلك المحادثة المتعددة الشعاب . والحلم ينقلب مرة أخرى إلى تبرير ، إلى دفاع عن حتى ، شأن الحلم الذى فسرناه أول ما فسرنا ، حلم حقنة إرما . نعم ، إنه يتابع الموضوع المثار هناك ويناقشه بالإشارة إلى مادة جديدة تجمعت فى الفترة الواقعة بين الحلمين . بل حتى صور الحلم بما اتسمت به من لا مبالاة ظاهرية هى أيضاً لهجة[1] ؛ إنها تعنى : ومع هذا فأنا الرجل الذى كتب تلك المقالة القيمة ذات الأثر عن الكوكايين ، مثلما كنت أقول من قبل : ومع هذا فأنا طالب مجد لا يترك مجالا لعائب . وحاصل القول فى الحالتين هو : ومن حتى إذن أن أستبيح ذلك لنفسى . بيد أنى أكتفى من تفسير الحلم بهذا القدر ؛ فما أردت بروايته سوى أن أصور بمثال علاقة محتوى الحلم بخبرة اليوم السابق التى أثارته : ما دمت لا أعرف من ذلك الحلم سوى محتواه الظاهر لم تتضح لى سوى علاقة واحدة للحلم بانطباع واحد من انطباعات النهار ، فأما بعد أن قمت بالتحليل فيظهر مصدر ثان للحلم فى خبرة أخرى من خبرات ذلك النهار نفسه . فأما أول هذين الانطباعين اللذين تعلق بهما الحلم فانطباع يستوى شأنه عندى ، إنه ملابسة ثانوية : أرى فى إحدى العارضات كتاباً يجذب عنوانه انتباهى لحظة ، ولا يكاد محتواه أن يثير منى أقل اهتمام . فأما الخبرة الثانية فذات قيمة نفسية عالية ؛ فقد تحدثت ساعة تامة إلى صديقى طبيب العيون حديثاً مشبوباً ، لمحت فى خلاله تلميحات كان من شأنها أن تصيب كلينا من قريب ، واستثيرت ذكريات جعلتنى أنتبه إلى ما انطوت عليه دخيلتى من تهييجات ذات صنوف شتى . أضف إلى ذلك أن

---

(١) [Akzent — ونقول " لهجة " بالمعنى الذى تكون لهذه الكلمة من خلال استخدامها العامى على الأقل وهو معنى تعبير الصوت عند الكلام ، كما فى قولنا " لهجة التوسل " أو " لهجة التحدى " مثلا . والمراد بالطبع هو : حتى صورة الحلم لا تخلو من المعنى كما لا تخلو منه " لهجة " الكلام .]

المحادثة قد انقطع حبلها قبل تمامها إذ أقبل علينا بعض معارفنا . فما علاقة هذين الانطباعين النهاريين كلا بالآخر ثم بحلم الليلة التالية ؟

فأما محتوى الحلم [الظاهر] فلا أرى فيه سوى إشارة إلى الانطباع المجرد من القيمة الخاصة ، وبذا أستطيع أن أؤيد قول القائلين : إن الحلم يؤثر أن يلتقط من الحياة الواقعة ما هو ثانوى لكى يدرجه فى محتواه . وأما تفسير الحلم فكل شىء فيه يقود على العكس إلى الخبرة الهامة التى أهاجتنى بحق . فلو حكمت على معنى الحلم على النحو الوحيد الصحيح ، أى بحسب محتواه الكامن الذى أخرجه التحليل إلى الضوء ، رأيت أنى قد انتهيت على غير توقع إلى كشف جديد ذى خطر . فأنا أرى اللغز المتضمن فى قولنا : إن الحلم إنما يشغل بأشتات معدومة القيمة فى حياة النهار - أراه يتبدد . ولست أجد كذلك بدا من مناقضة القضية القائلة بأن الحياة النفسية التى نعرفها فى اليقظة لاتُواصل فى الحلم وأن الحلم — تبعاً لذلك — إنما هو نشاط نفسى ينفق فى الصغائر : إن الضد هو الصحيح ؛ فما يشغلنا فى النهار يسيطر أيضاً على أفكار الحلم ، وما نكلف أنفسنا عناء الحلم إلا بتلك الأمور التى كانت فى النهار داعية إلى التروى .

إن أقرب تعليل لكونى أحلم بالانطباع المجرد من القيمة ، فى حين أن ما حملنى على الحلم كان الانطباع الذى هاجنى بحق ، هو من غير شك أننا نواجه هنا مرة أخرى ظاهرة من ظواهر التشويه الحلمى الذى أرجعناه فيما سبق إلى قوة تعمل عمل الرقابة . وفى هذه الحالة تكون ذكرى البحث الخاص بفصيلة السيكلامين قد استخدمت من أجل الإشارة إلى حديثى مع صديقى ، مثلما نابت إشارة « السالمون المدخن » فى حلم العشاء المعاق [ص ١٧٢] عن ذكر الصديقة . وسؤالنا الوحيد هو عن الحلقات الوسطى التى مكنت انطباع ذلك البحث من أن يعمل كإشارة إلى حديثى مع طبيب العيون ؛ فما ثمت من صلة واضحة للوهلة الأولى بين الطرفين . فى مثال العشاء المعاق كانت الصلة قائمة مقدماً : « فالسالمون المدخن » — وهو طبق الصديقة المفضل — كان يدخل من غير تكلف ضمن طائفة الأفكار التى كان يحتمل أن تثيرها شخصية الصديقة فى نفس الحالمة . وأما فى مثالنا الجديد فكل ما هنالك انطباعان منفصلان لا يبدو بينهما للوهلة الأولى جامع مشترك سوى وقوعهما فى ذات اليوم : فى الصباح يلفت البحث الخاص بفصيلة السيكلامين ناظرى ، ثم فى المساء أتحدث إلى صديقى . إن الجواب الذى يضعه

التحليل بين يدينا هو هذا : إن أمثال هذه العلاقات التى لا توجد من قبل بين انطباعين من الانطباعات تنسج من بعد بين المحتوى الفكرى الذى لأحد هذين الانطباعين وذلك الذى لآخرهما . ولقد جذبت الانتباه من قبل إلى الحلقات الوسطى فى مثالنا هذا بالكلمات التى أبرزتها عند رواية التحليل . فلولا التأثير الذى جاء من جهة أخرى ما أدت فكرة البحث الخاص بفصيلة السيكلامين — فى الأغلب — إلا إلى فكرة أن تلك هى الزهرة التى تؤثرها زوجتى ، وربما ساقت أيضاً إلى باقة السيدة المفتقدة . ولست أعتقد أن تلك الأفكار المستترة كانت تكفى عندئذ فى أن تستثير حلماً ؛ فكما يجىء فى « هاملت » :

« ولا حاجة بنا ، يا سيدى ، إلى شبح يخرج من قبره
لكى يأتينا بهذا الخبر [1] . »

ولكن انظر ! لقد تذكرت فى خلال التحليل أن الرجل الذى قطع حبل حديثنا كان يدعى جارتنر [البستانى] وأن زوجه لاحت لى مزدهرة ، بل إنى لأذكر الآن وأنا أكتب هذه الكلمات أن الحديث بيننا قد دار برهة حول مريضة من مريضاتى كانت تحمل ذلك الاسم الجميل : فلورا [أزهار] . فلا بد أن الذى حدث هو أن تلك الحلقات الوسطى المنبعثة من دائرة الأفكار النباتية قد وصلت ما بين خبرتى اليوم : المجردة من القيمة والمثيرة . ثم استتبت بعد ذلك روابط أخرى ، وأعنى بها تلك التى كانت تصحب فكرة الكوكايين — وهى فكرة كانت تملك الحق كل الحق فى أن تتوسط بين شخص الدكتور كونجشتاين وبين بحث نباتى كنت قد كتبته — فكان أن وثقت هذه الروابط اندماج كلتا الدائرتين الفكرتين ، بحيث صار من الممكن أن يستخدم جزء من الخبرة الأولى فى الإشارة إلى الثانية .

إنى أتوقع أن يرد البعض هذا التعليل لكونه يجىء اعتباطاً أو لأنه مفتعل : فماذا ترى كان يحدث لو أن الأستاذ جارتنر وزوجه المزدهرة لم يقبلا ، أو لو أن المريضة التى جرى الحديث بذكرها لم تكن تدعى فلورا بل آنا ؟ والجواب مع ذلك هين : فلو قد غابت تلك الروابط الفكرية لاتجه الاختيار من غير شك إلى غيرها . وما أسهل إنشاء أمثال هذه الروابط ! كما يتضح من التوريات والنكات التى يبتدعها الناس كل يوم لكى يلهوا بها : إن سلطان النكتة لا يعرف حدوداً . ونستطيع أن نذهب إلى أبعد من ذلك فنقول : إنه لو قد تعذر إنشاء روابط كافية بين انطباعى النهار لما خرج الأمر عن

(١) [الفصل الأول ، المشهد الخامس ، السطر ١٢٥ — بالإنجليزية فى الأصل .]

أن يجيء الحلم مختلفاً ؛ كان يجيء انطباع آخر مجرد من القيمة — من قبيل ما يعرض لنا زرافات ثم لا نلبث أن ننساه — فيقوم بالنسبة إلى الحلم مقام « المبحث الخاص » ، فيرتبط بمضمون المحادثة وينوب عنها فى محتوى الحلم . ولما كان هذا المبحث دون غيره هو الذى قد خص بهذا القدر ، فمعنى ذلك أنه كان من غير شك أنسب الانطباعات لهذا الارتباط . ولسنا بحاجة إلى أن نتعجب مع هانشن سلاو — فى [إحدى لُمَع] لسنج [المنظومة] — من « أن أغنياء الدنيا وحدهم هم الذين يملكون معظم المال » .

بيد أن العملية النفسية التى بوساطتها تحل الخبرة المجردة من القيمة محل الخبرة ذات القيمة النفسية — على حسب كلامنا — لا يمكن إلا أن تبدو لنا مع ذلك مثار شك وحيرة وسوف نعمل فى فصل قادم [الفصل السادس، قسم ب، ص٣١٧ وما يليها] على تقريب خصائص تلك العملية اللامعقولة مظهراً من أفهامنا. وأما فى هذا الموضع فلسنا نشغل إلا بنتيجة تلك العملية التى تدفعنا إلى التسليم بها خبرات لا تحصى ، مطردة الوقوع ، فى تحليل الحلم . بيد أننا نقول الآن : إن العملية تبدو كأن نقلة —أنقول : فى النبرة[1] النفسية ؟ — تقع على طول الطريق المؤلف من هاته الحلقات الوسطى ، إلى أن تكتسب الأفكار ذات الشدة الضعيفة أصلا شحنة الأفكار التى كانت مستثمرة فى الأصل استثمارا شديداً ، وبذلك تتمكن من شق طريقها إلى الشعور[2]. وأمثال هذه النقلات لا تثير عجبنا على الإطلاق حين يتعلق الأمر بكميات وجدانية أو بوجوه النشاط الحركى عامة : فأن تتحول عانس وحيدة بحبها إلى الحيوانات ، أو أن يصبح الأعزب من المغرمين بجمع الأشياء، أو أن يذود الجندى بمهجته عن خرقة ملونة ، علمه ، أو أن تطول ضغطة اليد لحظة فتفيض بالعاشق النشوة ، أو أن يفقد منديل فى « عطيل » فيطلق فقده غضباً عارماً ، كل أولئك أمثلة على النقل لا نجادل فيها . ولكن أن يتقرر أمر ما يدخل الشعور وما يقبض عنه — أى ما نفكر فيه وما لا نفكر فيه — أن يتقرر ذلك على هذا النحو عينه

---

(١) [Akzent — ويعنى أيضاً رفع الصوت أو خفضه عند النطق بالمقاطع أو العلامات الدالة على ذلك ، من وترجمناه بالنبرة من " نبر " أى رفع صوته بعد انخفاض . ويستخدم هنا كناية عن الشدة أو الأهمية النفسية من حيث أن الصوت يرتفع فى المقاطع التى يراد إبراز أهميتها .]

(٢) [سوف يرى القارئ كيف يحاول فرويد فى الفصل السابع أن يبنى نظرية فى الحياة النفسية تقوم على فكرة " الطاقة " . ومن شأن فكرة الطاقة أن تجر إلى فكرة الاستثمار أى صرف هذه الطاقة واستخدامها فى الأوجه المختلفة . والأفكار المستثمرة استثمارا شديدا هى إذن تلك التى وضعت أو صرفت فيها كميات كبيرة من الطاقة النفسية ، أو المصحوبة بشحنات نفسية كبيرة .]

ووفاقاً لتلك المبادئ الأساسية ذاتها — ذلك ما يلوح لنا حدثاً مرضيا ، ونسميه خطأ فى التفكير حيثما وقع فى حياة اليقظة . وأستبق الأمور هنا بذكر نتيجة سوف نخلص إليها فيما بعد ، فأقول : إن العملية النفسية التى شاهدناها فى النقل الحلمى لا يمكن أن تعد اضطراباً مرضياً ، بيد أنها تختلف مع ذلك من العمليات السوية ، ومن الواجب أن نعتبرها عملية ذات طبيعة أكثر أولية [أنظر الفصل السابع ، القسم هـ .]

ونحن — إذن — نفسر كون محتوى الحلم يلتقط آثار الخبرات الثانوية بأنه مظهر من مظاهر التشويه الحلمى (تشويه بالنقل) ، ونذكر فى هذا الصدد أننا قد عرفنا فى تشويه الحلم أثراً من آثار الرقابة التى تعمل عملها فى منتصف الطريق بين نظامين نفسيين [ص١٦٨] ولهذا نتوقع أن يكشف لنا تحليل الحلم بانتظام عن مصدر حياة النهار الحقيقى ، ذى القيمة النفسية — ذلك المصدر الذى نقلت النبرة من ذكراه إلى الذكرى المجردة من الوزن . ونحن إذ نتصور الأمور على هذا النحو نرانا نعارض نظرية روبرت [ص١١١] التى تفقد عندئذ كل جدوى بالنسبة إلينا تمام المعارضة . فالواقعة التى توخى روبرت تعليلها واقعة لا وجود لها ، وتسليمه بها يرجع إلى فهم خاطئ ، إلى إخفاق روبرت فى أن يستبدل بالمحتوى الظاهر للحلم معناه الحقيقى . واعتراض آخر يمكننا توجيهه إلى نظرية روبرت : فلو كانت مهمة الحلم الحقيقية هى أن يخلص ذاكرتنا بفعل نفسى خاص من « حثالة » ذكريات النهار ، للزم من ذلك أن يكون النوم أكثر عذاباً وأبلغ مشقة من الحياة النفسية المستيقظة ؛ فمن الواضح أن عدد الذكريات المجردة من القيمة التى كان ينبغى عندئذ حماية الذاكرة منها يفوق الحصر : إن الليل بأكمله ما كان ليكفى الفراغ من مثل هذا الحشد . والأرجح من ذلك كثيراً هو أن نسيان الانطباعات المجردة من الوزن يتم من نفسه دون أن تتدخل قوانا النفسية فى ذلك تدخلا فعالا .

بيد أننا نشعر مع ذلك بما يحذرنا من أن ننصرف عن أفكار روبرت دون مزيد اعتبار ؛ فما فسرنا بعد تلك الواقعة ، وأعنى بها : أن انطباعاً لا منزلة له من انطباعات اليوم — اليوم الأخير على التحديد — يشارك دائماً فى محتوى الحلم . فإن العلاقة بين هذا الانطباع وبين مصدره الحقيقى فى اللاشعور لا تقوم منذ البدأ ، بل هى — كما رأينا — قد لا تنسج إلا من بعد فى خلال عمل الحلم[1] ، كأنها قد سخرت تسخيراً لتحقيق

(١) [تلك هى المرة الأولى التى يذكر فيها فرويد تلك الفكرة الجوهرية التى يخصص لها الفصل السادس من هذا الكتاب — وهو أطول فصوله وأهمها جميعاً .]

النقل المستهدف . وعلى ذلك فلا بد أن ثمت قوة قاهرة تدفع إلى إنشاء روابط فى اتجاه الانطباع الحديث ، المجرد مع ذلك من القيمة ، دون غيره . ولا بد أن هذا الانطباع قد خص بكيف يجعله يصلح لهذا الغرض صلاحية خاصة . فلولا هذا لكان من السهل كذلك أن تنقل أفكار الحلم شدتها إلى عنصر غير هام مما يدخل فى دائرة معانيها هى .

إن الملاحظات الآتية قد تعيننا على توضيح هذه المسألة : إذا حمل النهار فى طياته خبرتين جديرتين بأن تستثيرا حلماً — أو أكثر من خبرتين — أدمج الحلم ذكر كليهما فى كل واحد : إنه يخضع لدافع قهرى يدفعه إلى أن يؤلف منهما وحدة . وها هو ذا مثال على ذلك : ذخلت فى عصر يوم من أيام الصيف عربة قطار فوجدت بها رجلين أعرفهما دون أن يعرف أحدهما الآخر . وكان أحدهما زميلا كبير النفوذ وكان الآخر وجيها من عائلة معروفة كانت تطلب مشورتى الطبية . فعرفت كلا منهما بالآخر ، بيد أنهما ظلا طيلة الرحلة يتبادلان الحديث من خلالى ، بحيث كان على أن أتحدث فى مختلف الموضوعات مع أحدهما طوراً ثم مع الآخر طوراً آخر . ورجوت من زميلى أن يزكى شاباً يعرفه كلانا ، كان قد بدأ يزاول مهنته كطبيب فى ذلك الحين . فأجاب الزميل بأنه واثق أكبر الثقة من كفاءة هذا الشاب ، بيد أنه يعتقد أن مظهره المتواضع لن يجعل نجاحه وسط العائلات الكبيرة أمراً سهلا . فأجبته : « وهذا عينه هو الذى يجعله محتاجاً إلى توصية » . ثم استدرت بعد ذلك إلى رفيقى الآخر فى السفر أستفسره عن صحة عمته — وهى أم إحدى مريضاتى ، وكانت تلزم الفراش إذ ذاك لمرض خطير ألم بها . وفى الليلة التى جاءت فى أعقاب تلك الرحلة ، رأيت فى الحلم صديقى الشاب الذى رجوت تزكيته واقفاً فى قاعة أنيقة جمعت كل من أعرف من الأكابر والأغنياء ، وهو يلقى عليهم — ولا شىء ينقصه من مسحة رجل المجتمعات — خطاباً فى رثاء السيدة العجوز (التى اعتبر الحلم موتها شيئاً واقعاً) عمة رفيقى الثانى فى السفر . (وأعترف بأن العلاقة بينى وبين هذه السيدة لم تكن على ما يرام . (وهكذا عرف الحلم مرة أخرى كيف يقيم الروابط بين انطباعى النهار وكيف يؤلف منهما موقفاً واحداً .

ولست أرى بدا من أن أقرر — استناداً إلى خبرات كثيرة من هذا القبيل — أن عمل الحلم يخضع لنوع من القسر يدفعه إلى أن يؤلف من جميع المصادر التى تزود الحلم

بمنبهاته وحدة واحدة فى الحلم . [١]

وأنظر الآن فى تلك المسألة : أمن الحتم فى كل مرة أن يكون المصدر الحافز إلى الحلم والذى يقود إليه التحليل حدثاً قريب العهد (وذا أهمية) ، أم أن من الممكن أن تقوم بعمل الحافز إلى الحلم خبرة باطنة ، وأعنى بذلك تذكر حدث ذى أهمية نفسية ، أى تفكيرا فيه ؟ إن الجواب الذى نخلص إليه من عدد كبير من التحليلات يؤيد الاحتمال الثانى أقطع التأييد . فالحافز إلى الحلم قد يكون عملية باطنة ، اكتسبت حداثة العهد — إن جاز التعبير — لأن الفكر قد اتجه إليها فى خلال النهار . ولقد حان الوقت لكى نجمل الشرائط التى نرى خضوع مصادر الحلم لها .

إن مصدر الحلم قد يكون :

أ) خبرة حديثة ذات أهمية نفسية تُمَثَّل فى الحلم تمثيلا مباشراً [٢] ، أو

ب) عدة من الخبرات الحديثة الهامة يدمجها الحلم فى وحدة [٣] ، أو

ج) خبرة أو أكثر من الخبرات الحديثة الهامة تمثل فى محتوى الحلم بذكر خبرة أخرى معاصرة لها لكنها خالية من القيمة [٤] ، أو

د) خبرة باطنة ذات أهمية (ذكرى من الذكريات أو خيطا فكريا) تمثل باطراد فى الحلم بذكر انطباع حديث لكنه مجرد من الوزن [٥] .

ومن هذا نرى أن تفسير الأحلام يحقق ذلك الشرط فى جميع الحالات : أن يكون أحد مقومات محتوى الحلم تكراراً لانطباع حديث من اليوم السابق . وهذا الانطباع الذى

---

(١) إن نزوع عمل الحلم إلى أن يدمج فى موقف واحد جميع الأحداث ذات الشأن والتى تقع فى وقت واحد ، ظاهرة لاحظها مؤلفون عديدون من قبل ، مثل دولاچ (١٨٩١ ، ٤١) ودلبوف الذى يتحدث فى هذا الصدد عما يسميه "rapprochement forcé" [التقريب القهرى] (ص ٢٣٧) . [هذا وقد كانت تلك الفقرة تنتهى بالجملة الآتية التى أضيفت فى طبعة ١٩٠٩ ثم حذفت من جديد بعد سنة ١٩٢٢ : " وسوف نصادف فى فصل قادم (عن عمل الحلم) هذا الدافع القاهر إلى الإدماج من حيث هو حالة من حالات تكثيف الحلم .— وهو نوع آخر من العمليات الأولية . "]

(٢) كما فى حلم حقنة إرما وحلم عمى ذى اللحية الصفراء .

(٣) كما فى حلم خطبة الرثاء التى يلقيها الطبيب الشاب .

(٤) كما فى حلم المبحث النباتى .

(٥) معظم أحلام مرضاى فى خلال العلاج تنتمى إلى هذا النوع .

يتحتم تمثيله فى الحلم إما أن يكون داخلا فى دائرة الأفكار التى ينتمى إليها الحافز الحقيقى إلى الحلم — سواء كجزء جوهرى منها أم كجزء غير هام — وإما أن يكون قد أخذ من مجال انطباع لا قيمة له ربطت بينه وبين الأفكار المحيطة بالحافز إلى الحلم حلقات يزيد عددها أو ينقص . والكثرة الظاهرة فى هذه الشروط إنما تتوقف فى الحقيقة على هذين الاحتمالين : أن يحدث النقل أو ألا يحدث ، وحرى بنا أن نلحظ كيف يمكننا هذان الاحتمالان من تعليل كل درجات التباين بين مختلف الأحلام ، بمثل السهولة التى كان كان يتيحها للنظرية الطبية فرض الخلايا المخية المتدرجة من اليقظة الجزئية حتى اليقظة التامة (أنظر ص ١٠٩) .

ونلاحظ بعد ذلك فيما يتصل بهذه الحالات الأربع الممكنة أن عنصراً حديثاً لكنه خال من القيمة قد يستبدل من أجل تكوين الحلم بعنصر نفسى ذى قيمة لكنه غير حديث (سلسلة الأفكار أو الذكرى) وذلك على أن يتوافر الشرطان الآتيان : (أ) أن يكون محتوى الحلم على رباط يربطه بخبره حديثه العهد، (ب) أن يظل الحافز إلى الحلم عملية نفسية ذات قيمة . ولا يجتمع هذان الشرطان فى ذات الانطباع إلا فى حالة واحده ، هى (أ) . فإذا لاحظنا — فوق ذلك — أن الانطباعات المجردة من المنزلة والتى يمكن استخدامها فى تكوين الحلم طالما ظلت على حداثتها — تفقد هذه الصلاحية إذا ما انقضى عليها يوم واحد (أو بضعة أيام على الأكثر) ، لم يكن بد من أن نخلص إلى أن حداثة الانطباع فى ذاتها تخلع عليه نوعاً من القيمة النفسية تعدل بوجه من الوجوه القيمة التى للذكريات أو للسلسلات الفكرية ذات النبرة الوجدانية . وأما الأساس الذى تنهض عليه هذه القيمة التى تملكها الانطباعات الحديثة فيما يتصل بتكوين الحلم فلن يتضح لنا إلا فى سياق مناقشاتنا السيكولوجية التالية[1].

هذا ولقد يتجه اهتمامنا بهذه المناسبة إلى تلك الظاهرة ، وهى : أن مادتنا الذكروية والفكرية قد تصيبها تغييرات تقع فى خلال الليل دون أن يلحظها الشعور . فمن البين أن النصيحة التى تسدى إلينا بإسلام أنفسنا للنوم ليلة قبل أن نتخذ قراراً أخيراً فى صدد أمر ما هى نصيحة لها ما يبررها . ولكننا ننتقل هنا من سيكولوجية الاحلام إلى سيكولوجية

---

(١) أنظر ما ورد عن " التحويل " فى الفصل السابع [ص٥٥١ وما بعدها .]

النوم ، ولن تكون هذه هى المناسبة الأخيرة التى نغرى فيها بهذا الانتقال [١] .

غير أن ثمت اعتراضاً يهدد بدفع نتائجنا الأخيرة . ذلك أنه إذا كانت الانطباعات المجردة من المنزلة لا تشق طريقها إلى الحلم إلا ما دامت على حداثتها ، فكيف يتفق أن يشتمل محتوى الأحلام كذلك على عناصر مستمدة من فترة سابقة من فترات الحياة ، لم تكن لها — على حسب كلمات شترومپل — أية قيمة نفسية حتى فى إبان حداثة عهدها ، وكان الواجب — من ثم — أن يعف عليها النسيان منذ زمن بعيد ، أى عناصر لا هى بالطازجة ولا هى بذات أهمية نفسية ؟

إن فى إمكاننا أن نفرغ من هذا الاعتراض فروغا تاماً إذا استعنا بمكتشفات التحليل النفسى للعصابيين . والحل الذى تلقاه المشكلة عندئذ هو هذا : إن النقل الذى يبدل بالمادة ذات الأهمية السيكولوجية مادة أخرى لا قيمة لها (فى الحلم كما فى التفكير على السواء) قد وقع فعلا فى تلك الحالات فى هاته الفترة السابقة من فترات الحياة ، ثم نبت من بعد ذلك فى الذاكرة . فالانطباعات التى كانت مجردة من القيمة فى مبدأ الأمر لم تعد كذلك منذ أن اكتسبت بوساطة النقل قيمة المادة ذات الأهمية النفسية . وما بقى بغير أهمية حقيقة لا يمكن استحضاره فى الحلم بعد ذلك أبداً .

ومن المناقشات المتقدمة يستخلص القارئ بحق أننى أذهب إلى أنه لا وجود لحافز مجرد من القيمة ولا وجود — من ثم — لأحلام بريئة . وذلك هو ما أعنيه بكل صراحة ومن غير قيد — هذا إذا تركنا جانبا أحلام الأطفال وربما بعض الاستجابات الحلمية

---

(١) لقد قام پوتسل بعمل هام فى تبيان النصيب الذى يرجع إلى الانطباعات الحديثة العهد فى تكوين الحلم ، وذلك فى مقال ثرى فى متضمناته (١٩١٧) . فقد قام پوتسل بتجارب كان يطلب فيها إلى عدد من الأشخاص أن يرسموا ما قد لاحظوه ملاحظة شعورية من صورة تعرض على أبصارهم بوساطة التاخيستوسكوب [جهاز يستخدم لعرض الصورة فى فترة وجيزة جداً من الزمن] . ثم يعد ذلك كان يتجه باهتمامه إلى أحلامهم التى يحلمون بها فى خلال الليلة التالية ويطلب منهم مرة أخرى أن يقوموا برسم أجزاء مناسبة منها . وحينئذ كان يتبين بما لا يقبل الشك أن التفاصيل التى لم يلاحظها هؤلاء الأشخاص ملاحظة شعورية من الصور المعروضة عليهم هى التى كانت توفر مادة أحلامهم على التحقيق ، على حين لم تكن تتكرر فى المحتوى الظاهر للحلم تلك التفاصيل التى أدركت إدراكاً شعورياً وسجلت بالرسم بعد أن عرضت الصورة . وكانت المادة التى يقتبسها عمل الحلم تعدل بوساطته على طريقته " التحكية " المألوفة (أو ، على الأصح ، " الأوتوقراطية ") تعديلا يسخرها لأغراض تكوين الحلم . وإن المشكلات التى تثيرها تجارب پوتسل لتعدو كثيراً نطاق تفسير الحلم كما نعالجه فى هذا الكتاب . ومع هذا ينبغى علينا أن نشير بكلمة عابرة إلى مدى الفرق بين هذا المنهج الجديد فى دراسة تكوين الأحلام بالتجريب وبين الطريقة القديمة الفجة التى كانت تتلخص فى أن تدخل على محتوى الحلم منبهات مزعجة للنوم .

القصيرة إلى أحاسيس يستشعرها المرء فى خلال الليل . وأما فيما خلا ذلك فما نحلم به إما أن يكون ذا قيمة نفسية سافرة، وإما أنه قد شوه فلا نعود نملك الحكم عليه حتى نفسره ، وحينئذ يكتشف مرة أخرى أنه ذو قيمة . فالحلم لا يشغل أبداً بالتوافه ، ولسنا ندع نومنا تزعجه الصغائر [١]. والأحلام البريئة مظهرا لا يلبث أن يتبين مكرها إذا تجشم المرء عناء تحليلها . وإذا جاز لى أن ألجأ إلى هذا التعبير الجارى ، قلت : إنها ترينا « تحت التبن ماء ». ولما كانت هذه مسألة أتوقع المناقضة فى صددها، وكنت أرحب بكل فرصة تتيح لى أن أفضح تشويه الحلم وهو يعمل عمله — فقد انتخبت من مجموعتى عدداً من « الأحلام البريئة » لكى أقوم بتحليلها .

١

روت شابة ذكية ، مثقفة ، لكنها من أولئك الذين يسود التحفظ مسلكهم ، الذين يشبهون بـ « الماء الساكن » [٢] — روت ما يلى : حلمت أننى وصلت إلى السوق بعد فوات الوقت ، فلم أستطع أن أخرج بشىء ، لا من الجزار ولا من بائعة الخضر . حلم برئ من غير شك ، لكن الأحلام لا تكون بهذه البساطة ، فأسألها أن تزيده تفصيلا ، فتدلى بالرواية الآتية تذهب إلى السوق ومعها طاهيها وهو يحمل السلة . تسأل الجزار شيئاً ما ، فيقول لها : « لم يعد نيل ذلك فى الإمكان» ويعرض عليها شيئاً آخر بدله قائلا : « هذا أيضاً لا بأس به . » تعرض عنه وتذهب إلى بائعة الخضر ، وتريد هذه أن تبيعها نوعاً غريباً من الخضر ربط حزما ، لكنه كان أسود اللون . تقول الحالمة : «لا أعرف ذلك ، لا آخذه . »

إن الحلم صريح الصلة باليوم السابق . فهى — حقيقة — قد ذهبت متأخرة إلى السوق ،

---

(١) يقول هاڤلوك إليس — وهو من أرفق نقاد " تفسير الأحلام " — : " وهذا هو الموضع الذى لايستطيع الكثيرون منا أن يتابعوا فرويد بعده . " (١٩١١ ، ١٦٩) . بيد أن هاڤلوك إليس لم يقم قط بتحليل أى حلم من الأحلام ، وهو لا يريد أن يصدق كيف يكون من الجور أن يقيم المرء حكمه على محتوى الحلم الظاهر .

(٢) [وهم الذين لا يظهرون شيئاً مما بهم ، وبهم مع ذلك الشىء الكثير ، كالماء الساكن لا تظهر حركة على سطحه وهو مع ذلك بعيد الغور .]

فخرجت منه خالية الوفاض : كان دكان الجزار مغلقاً — هذا هو ما يتبادر إلى الذهن كوصف لما حدث . ولكن مهلا ! أليس ذلك — أو على الأصح ضده — تعبيراً سوقيا يشير إلى نوع بعينه من الإهمال قد يأتيه الرجل فى ملبسه ؟[١] أيا كان الأمر فإن الحالمة لم تستخدم هذه العبارة ، ولعلها تجنبت استخدامها . فلنعمل — إذن — على أن نفسر تفاصيل هذا الحلم .

إن كل ما يحمل فى الحلم صفة الكلام الصريح ، أى كل ما يقال أو يسمع ولا يقف الأمر عند مجرد التفكير فيه (والتفرقة ممكنة فى معظم الأحيان عن يقين) فهو مستمد من كلام قيل فعلا فى الحياة المستيقظة — وإن كان من المفروغ منه أن هذا الكلام إنما يعالج معالجة المادة الخام ، فيقتطع ، ويعدل بعض التعديل ، وينتزع من محيطه بنوع أخص[٢] . ولنا حين نفسر حلما أن نبدأ بأمثال هذه العبارات المنطوقة ؛ فما هو — إذن — مصدر كلمة الجزار : إن نيل ذلك لم يعد فى الإمكان ؟ أنا المصدر ؛ فقد ذكرت لها منذ أيام قلائل أن أقدم خبرات الطفولة لم يعد فى الإمكان نيلها من حيث هى كذلك ، بل تحل محلها فى التحليل « التحويلات » والأحلام . وهكذا أكون أنا الجزار ، وهى ترفض هذا التحويل إلى الحاضر للأساليب القديمة فى التفكير والإحساس . وما مصدر قولها فى الحلم : لا أعرف ذلك ، لا آخذه ؟ ذلك ما يقتضى التحليل تجزئته . إن « لا أعرف ذلك » كلام قالته هى فى اليوم السابق لطاهيها إذ احتدم النقاش بينه وبينها . بيد أنها قد أردفت إذ ذاك قائلة : الزم حدودك ! ومن البين أن نقلا قد وقع فى هذا الموضع ؛ فهى لم تدرج فى حلمها من الجملتين اللتين وجهتهما إلى طباخها سوى الجملة التى لا خطر منها ، لكن الجملة المقموعة وحدها : « الزم حدودك » هى التى تتلاءم وبقية محتوى الحلم ، إنها الجملة التى يجوز توجيهها إلى رجل خرج عن اللياقة ونسى « دكان جزارته مفتوحاً » . وأما أننا قد وفقنا حقيقة إلى الأثر الصحيح بتفسيرنا هذا فذاك ما يثبت بعدئذ من التجاوب بين هذا التفسير وبين التلميحات

---

(١) [« دكان الجزار مفتوح » تعبير دارج فى ڤيينا معناه : « أزرار البنطلون مفكوكة . »]

(٢) انظر ماسوف يجىء بصدد الكلام فى الأحلام فى الفصل الخاص بعمل الحلم [القسم و ص ٤١٩ وما بعدها.] وليس هناك سوى كاتب واحد يبدو أنه عرف مصدر العبارات المنطوقة فى الحلم ، وأعنى به دلبوف الذى يشبه هذه العبارات بالـ clichés .

الكامنة وراء قصة بائعة الخضر . فصنف الخضر الذى يباع فى حزم (وحزَم مستطيلة ، كما أضافت الحالمة من بعد ، وهو إلى ذلك أسود اللون — هذا الصنف ما عساه أن يكون إلا مزيجاً حلمياً من الهليون والفجل الأسود ؟ وأما الهليون فلا أظننى بحاجة إلى تفسيره لعارف أو عارفة[١] . وأما الصنف الآخر من الخضر — وانظر كيف يتحول [اسمه : schawrzer Rettig ، أى الفجل الأسود] إلى تلك الصيحة : Schwarzer,rett'dich [اهرب ، يا أسود !] [٢] — فيهيأ إلى أنه يشير كذلك إلى ذات الناحية الجنسية التى خمناها منذ البدأ حين استشعرنا الميل إلى أن ندرج فى رواية الحلم جملة : كان دكان الجزار مغلقاً . ولسنا بحاجة إلى أن نعرف معنى هذا الحلم معرفة كاملة ؛ فالشىء الثابت هو هذا : أن للحلم معنى ومعنى بعيداً عن البراءة[٣] .

٢

وها هوذا حلم آخر برىء لهذه المريضة ، وهو بمعنى ما بمثابة الكفة الأخرى للميزان بالنسبة إلى الحلم الأول : يسألها زوجها : ألا ينبغى علينا أن نضبط أصوات هذا المعزف فتجيبه قائلة : إن الأمر لا يستحق العناء ، فالمطارق محتاجة إلى أن تركب مع الأوتار الصحيحة على أية حال . هذا أيضاً تكرار لحدث حقيقى من أحداث اليوم السابق ؛ فقد سألها زوجها هذا السؤال وأجابته بمثل هذا الجواب. فما معنى حلمها به ؟ . إنها تقول عن المعزف : إنه قفص يبعث على الاشمئزاز ، منكر الصوت ، شىء كان يملكه زوجها

(١) [« نبات ذو قضبان رخصة يهما لبن » — عن « أقرب الموارد » .]

(٢) [لاحظ الجناس . وأما كيف يؤيد هذا الجناس الإشارة الجنسية التى يراها فرويد فى اسم هذا النبات فأمر غير بين . ويرجح ستراشى بهذه المناسبة أن فرويد ربما كان يتحدث هنا وهو يذكر لغزاً من الألغاز المصورة التى كانت ذائعة أكبر الذيوع فى مجلات ذلك العصر الهزلية وبخاصة مجلة : Fliegende Blatter أو " الصحائف الطائرة " . وسوف يرد ذكر هذه المجلة وذكر ألغازها المصورة فى مواضع شتى من هذا الكتاب .]

(٣) أقول لمن أراد العلم أن هذا الحلم يخفى وراءه تخييلا مداره أنى أسلك مسلكاً منافياً للأدب ، منطوياً على استفزاز جنسى ، وأنها تصد هذا المسلك من جانبى . فإن بدا هذا التفسير شيئاً بعيد عن التصديق ، ذكرت القارىء بالحالات التى يرى فيها الأطباء أنفسهم هدفاً لاتهامات من هذا القبيل من جانب نساء هستريات لم يظهر هذا التحليل عندهن مشوهاً فى صورة حلم ، بل يظهر ظهوراً شعورياً سافراً فى صورة هذائية — [١٩٠٩ :] وقد كانت الحالمة فى بدء تحليلها حين أتاها هذا الحلم ، ولم أعلم إلا فيما بعد أنها إنما كانت تكرر بهذا الحلم الصدمة الأولى التى كانت منشأ عصابها . ومنذ ذلك الحين وأنا ألحظ هذا المسلك عينه من جانب أشخاص كانوا فى طفولتهم ضحايا لمثل هذه المحاولات الجنسية ثم صاروا الآن كأنهم يلتمسون تكرارها فى أحلامهم .

من قبل الزواج[1] ، الخ . بيد أن مفتاح الحل إنما يكمن فى قولها : إن ذلك لا يستحق العناء .فهى قد استمدت هذه الكلمات من زيارة قامت بها فى اليوم السابق لإحدى صديقاتها ، ودعتها الصديقة إلى أن تنزع سترتها ولكنها أبت قائلة : شكراً ، ولكن الأمر لا يستحق العناء ؛ فأنا ذاهبة بعد قليل . وبينما كانت تقص على ذلك تذكرتُ أنها فى خلال جلسة التحليل بالأمس قد أمسكت بسترتها فجاءة ؛ فقد انفك أحد ازرارها. وهكذا تكون كمن أرادت أن تقول : أرجو ألا تلتفت ، إن الأمر لا يستحق العناء . وبذا يكتمل القفص فيصبح : القفص الصدرى ، ويعود بنا تفسير الحلم دفعة واحدة إلى زمن نضجها الجسمى فى خلال المراهقة ، حين بدأت تشعر بقلة رضاها عن هيئة جسمها . بل إنه ليقودنا إلى أزمنة تسبق ذلك كثيراً إذا اعتبرنا « يبعث على الاشمئزاز » و « منكر الصوت » ، وإذا تذكرنا فى هذا الصدد كيف يكثر فى التلميح وفى الحلم أن يحل نصفاً الكرة الأصغران من جسم المرأة محل النصفين الأكبرين — على سبيل التقابل أو التبديل .

٣

وأقطع هنا هذه السلسلة من أحلام تلك المريضة بإيراد حلم قصير ، برىء ، أتاه شاب فى مقتبل العمر : فقد رأى أنه يرتدى معطفه الشتوى من جديد ، وكان ذلك شيئاً مروعاً . إن السبب الظاهر لهذا الحلم هو هجوم البرد هجوماً مفاجئاً . بيد أننا نلحظ إذا أنعمنا النظر أن الجزئين القصيرين اللذين تركب منهما هذا الحلم لا يستقيمان كلا والآخر : إذ ما هو « المروع » فى ارتدائك فى البرد معطفاً ثقيلا أو سميكا ؟ إن من سوء حظ براءة هذا الحلم أن أول ما يحضر ذاكرة الحالم فى أثناء التحليل هو أن سيدة قد أسرت إليه البارحة بأن الفضل فى حياة ولدها الأخير يرجع إلى تمزق الحجاب المانع للنسل . فقد أجرى الحالم أفكاره بما يتفق وما سمع : الحجاب الرقيق خطر ، لكن السميك ردىء . ولقد تمثل الحجاب بحق فى صورة « المعطف » ؛ فكلاهما يُعْتَطَفُ. ولا شك فى أن حادثة من قبيل ما أفضت به السيدة قد كانت تكون شيئاً « مروعاً » بالنسبة إلى رجل أعزب . ولكن لنعد الآن إلى حالمتنا البريئة .

---

(١) وهو ما ينطوى على إبدال للضد بالضد كما سيتضح من تفسير الحلم .

٤

إنها تضع شمعة فى الشمعدان ، ولكن الشمعة تنكسر فلا تنتصب كما ينبغى . وتقول رفيقاتها فى المدرسة : إنها غير حاذقة . بيد أن المدرسة تقول : إن الذنب ليس ذنبها .

إن لهذا الحلم أيضاً مناسبة من الحقيقة . فهى — حقيقة — قد وضعت البارحة شمعة بالشمعدان ، إلا أن هذه الشمعة لم تنكسر . وقد لجأت الحالمة إلى رمز شفاف : فالشمعة موضوع يهيج أعضاء المرأة الجنسية ، وانكسارها بحيث لا تنتصب كما ينبغى يعنى عجز الرجل الجنسى (« إن الذنب ليس ذنبها ») . ولكن أتعرف السيدة الشابة هذا الاستعمال للشمعة ، وهى التى نشئت تنشئة ملؤها العناية وظلت بمنأى عن كل قبيح ؟ لقد اتفق أنها كانت قادرة على أن تبين كيف بلغ ذلك علمها : فهى كانت تركب نهر الراين يوماً حين مر بهم قارب علته جماعة من الطلبة استخفهم الطرب فرفعوا عقائرهم بأغنية ينشدونها — أو بالأحرى تصايحوا بها — هى : « عندما تقف ملكة السويد ، خلف مصراع النافذة المغلق ، وهى بشموع أبوللو . . . »[1]

إن السيدة لم تسمع الكلمة الأخيرة [المحذوفة] أو سمعتها فلم تفهمها . ولا بد أن زوجها قد أدلى إليها بالإيضاح المنشود . وقد استبدلت بهذه الأبيات فى محتوى الحلم ذكرى بريئة تتعلق بعمل كلفت به المريضة وهى لا تزال بالمدرسة فلم تحذق أداءه ؛ لأن مصراع النافذة كان مغلقاً — وهو العامل المشترك الذى يسر التبديل . وأما العلاقة بين فكرتى الاستمناء والعجز الجنسى فواضحة بما فيه الكفاية . و « أبوللو » المتضمن فى المحتوى الكامن لهذا الحلم كان حلقة وصل بينه وبين حلم سابق تمثلت فيه [الآلهة] بالاس العذرية . كل هذا بعيد فى الحقيقة عن البراءة .

٥

ولكى لا نخال أن الاستدلال بالحلم على الحياة الحقيقية للحالم أمر جم السهولة ،

---

(١) [أبيات من أغنية معروفة من أغانى الطلبة . "وشموع أبوللو" اسم لنوع من الشموع . وأما الكلمة المحذوفة فهى onaniert أى " تستمنى " .]

أضيف حلماً آخر — ظاهره البراءة أيضاً — من أحلام تلك السيدة . قالت : لقد حلمت بشيء صنعته بالأمس حقيقة ؛ فقد رأيت أنني أملأ خزانة صغيرة بالكتب حتى تعذر على إغلاقها ، وكان ما حلمت به هو هو الذى قد حدث حقيقة . فى هذا المثال ينصب معظم إلحاح الحالمة نفسها على الاتفاق الذى بين الحلم والحقيقة . وإن كل ما يعن فى صدد الحلم من أمثال هذه الأحكام والملاحظات — وإن حلت فى الفكر المستيقظ — إنما يكون دائماً ، فى الحقيقة ، جزءاً من محتوى الحلم الكامن — كما سوف تؤيده الأمثلة فيما بعد [ص ٤٤٥] . والذى تحدثنا به الحالمة — إذن — هو أن الحدث الذى يصفه الحلم قد وقع حقيقة بالأمس. وإن المطاف ليبعد بنا كثيراً لو أردنا أن نروى كيف خطر لنا أن نستعين باللغة الإنجليزية فى تفسير هذا الحلم . يكفى أن نقول : إن الأمر يدور من جديد حول box صغير (أنظر حلم الطفل الميت فى الصندوق ، فى ص ١٧٨) ، امتلأ حتى تعذر أن يدخله بعد ذلك شيء . وما من شائنة — إذن — فى هذه المرة على الأقل .

ومن البين فى جميع هذه الأحلام « البريئة » أن العامل الجنسي هو الدافع إلى الرقابة بيد أن ذلك موضوع ذو أهمية رئيسة يجب أن ندعه جانباً .

ب

مادة الطفولة

من حيث هى مصدر من مصادر

الحلم

قلنا — متفقين فى ذلك مع كافة المؤلفين إلا روبرت —: إن ثالثة الخصائص التى تميز محتوى الحلم هى أن الحلم قد تظهر فيه انطباعات ترجع إلى حياة الطفولة الأولى ، انطباعات تبدو بعيدة عن متناول الذاكرة فى اليقظة . ومن الصعب بطبيعة الحال أن نقرر

إلى أى حد يندر ورودها أو يكثر ؛ ما دمنا لا نعرف بعد اليقظة مصدر عناصر الحلم . فالبرهان على أن الأمر يتعلق فى هذا الحلم أو ذاك بانطباع مستمد من الطفولة يجب أن يؤسس على شهادة موضوعية ، وهو أمر لا تتيحه الفرص إلا نادرا . ومن الأمثلة الفريدة الدلالة على ذلك قصة مورى [المذكورة فيما سبق ، ص٥٦] عن الرجل الذى اعتزم أن يزور مسقط رأسه بعد غيبة دامت ما ينيف على العشرين عاماً : فقد حلم الرجل فى الليلة السابقة على الرحيل بأنه فى مكان لا عهد له به على الإطلاق وأنه يلتقى فى الطريق هناك برجل لا يعرفه ويتحدث إليه ، فلما عاد إلى وطنه تاح له أن يقتنع بأن المكان المجهول موجود حقيقة على مقربة من بلده ، وأما رجل الحلم الغريب فصديق من أصدقاء والده المتوفى لم يكن لا يزال على قيد الحياة بذاك المكان . وذلك من غير شك دليل على أنه قد رأى فى طفولته كلا الرجل والمكان . والحلم بعد ذلك حلم ينبغى إدراجه بين أحلام الصبر النافد ، كحلم الفتاة التى كانت تحمل تذكرة الحفل الموسيقى فى جيبها [ص١٧٦] ، أو حلم الطفلة التى وعدها أبوها برحلة إلى الضيعة [ص ١٥٥] ، إلى آخر ذلك . فأما الدوافع التى جعلت الحالم لا يستحضر من طفولته إلا تلك الانطباعات دون غيرها — فأمر لا يتبين بالطبع من غير تحليل .

وأخبرنى أحد المستمعين إلى محاضراتى — وكان يفخر بأن أحلامه قلما يصحبها التشويه — بأنه قد حلم منذ زمن غير بعيد بأنه يرى مدرسه الخاص القديم راقداً فى سرير واحد مع المربية التى ظلت بمنزلهم حتى الحادية عشرة من عمره . وحضره فى الحلم أيضاً مكان ذلك المشهد . وأثار كل هذا فى نفسه فضولا شديداً ، فقص الحلم على أخيه الأكبر الذى أكد له ضاحكاً صدق الحلم ؛ فهو — أعنى الأخ الأكبر — يذكر ذلك تمام الذكرى ، فقد كان عمره ، إذ ذاك ستة أعوام : كان من دأب العاشقين أن يسكرا الأخ الأكبر بالجعة كلما هيأت لهما الفرصة أن يجتمعا ليلا ، وأما الأخ الأصغر — حالمنا الذى كان يبلغ إذ ذاك الثلاثة أعوام وكان ينام مع المربية فى غرفة واحدة — فلم يكن يعد خطراً .

وثمت حالات أخرى يسهل علينا فيها أن نقطع باحتواء الحلم على عناصر مستمدة من حياة الطفولة دون استعانة بتفسير الأحلام . وذلك إذا كان الحلم مما يسمى بالأحلام المتكررة عن قدم ، أى إذا كان حلماً يأتى صاحبه للمرة الأولى وهو ما زال طفلا ثم

يعاوده بعد ذلك فى الرشد من حين إلى حين . وأستطيع أن أضيف إلى الأمثلة المعروفة على هذا النوع من الأحلام أحلاماً قليلة جمعتها ، وإن لم أكن قد وقع لى قط حلم متكرر من هذا القبيل : فقد قص على طبيب فى العقد الرابع من عمره أن أسداً أصفر اللون كان يتراءى له كثيراً فى أحلامه منذ عهد طفولته إلى يومنا هذا ، وكان فى استطاعته أن يصفه أدق الوصف . ثم جاء يوم فإذا هو يكتشف هذا الأسد الذى عرفه من حلمه متجسماً فى صورة لعبة من الخزف عنى عليها الدهر . وحينئذ علم الشاب من أمه أن هذا الأسد كان لعبته المفضلة فى طفولته ، وإن لم يعد يذكر شيئاً من ذلك .

وإذا تركنا المحتوى الظاهر للحلم إلى أفكاره الكامنة التى لا تنال بغير التحليل ، أدهشنا أن نرى أثر خبرات الطفولة فى أحلام ما كان محتواها ليدعونا قط إلى مثل هذا الظن . وأدين لزميلى المبجل ، صاحب « الأسد الأصفر » ، بمثال على ذلك فريد فى لطفه ودلالته النظرية . فقد أتاه — بعد أن قرأ وصف نانزنس لرحلته القطبية — حلم رأى فيه أنه فى حقل من الجليد يعالج هذا المستكشف المقدام علاجاً كهربائياً لنوبة ألمت به من مرض عرق النساء ! وبينما كنا نحلل الحلم تذكر قصة من طفولته لولاها لظل الحلم مستغلقاً على الفهم كل الاستغلاق : ذلك أنه — وهو طفل فى الثالثة أو الرابعة — كان يصغى يوماً إلى حديث دار بين من يكبرونه حول رحلات الاستكشاف حين سأل والده : أذلك مرض خطير ؟ وكان جلياً أنه قد خلط كلمة « رايزْن » [رحلات] بكلمة « رايسْن » [تشنجات] ، وتكفلت سخرية إخوته وأخواته بألا تنزلق تلك الخبرة المخزية إلى النسيان .

وإنا لنرانا إزاء مثال شبيه بذلك كل الشبه حين أعثر وأنا أحلل حلم المبحث الخاص بفصيلة السيكلامين على إحدى ذكريات طفولتى : ذكرى والدى حين جعلنى — وأنا فى الخامسة — أمزق كتاباً زين بلوحات ملونة . وقد نتشكك فى أن تكون تلك الذكرى قد أخذت حقيقة بنصيب ما فى تشكيل محتوى ذلك الحلم ، ونرجح أن يكون التحليل هو الذى أوجد هذه العلاقة من بعد . ولكن غزارة الروابط الاستدعائية وتشابكها يضمنان صحة وجهة النظر الأولى : السيكلامين — الزهرة المفضلة — الطبق المفضل — الخرشوف ، تمزيق كتمزيق الخرشوف ورقة فورقة (وهى جملة كانت تطرق أسماعنا كل يوم بمناسبة تمزيق الامبراطورية الصينية) ، المعشب — دودة الكتب التى تجد فى الكتب

غذاءها المفضل . ثم إنى أستطيع أن أؤكد للقارئ أن المغزى الأخير لذلك الحلم — وهو مالم أفض به ههنا — كان متصلا أوثق الاتصال بمضمون ذلك المشهد الطفلى .

ويرينا التحليل فى طائفة أخرى من الأحلام أن الرغبة التى أثارت الحلم فعلا ، والتى صور الحلم تحقيقها — قد تفرعت عن حياة الطفولة ، حتى أن المرء يدهش إذ يرى الطفل باندفاعاته وهو ما زال حياً فى الحلم !

وفى هذا الموضع أستأنف تفسير حلم سبق أن خرجنا منه بجديد ، وأعنى به حلم : صديقى ر . هو عمى [ص ١٦٢ وما يليها] . لقد مضينا فى تفسيره إلى أن تبين لنا فى جلاء أن الرغبة فى أن أرقى إلى منصب الأستاذية كانت إحدى الرغبات الدافعة إليه ، وعللنا الحنان الظاهر فى الحلم تجاه صديقى ر . بأنه كان نتاجاً أملته معارضتى ومدافعتى للمطاعن الموجهة فى أفكار الحلم نحو زميلىّ . ولقد كان الحلم حلمى ، ولى — إذن — أن أتابع تحليله بأن أقول : إننى وقد انتهيت من حله إلى هذا المدى لم أشعر بالرضا بما انتهيت إليه . فقد كنت أعلم أن حكمى المستيقظ على الزميلين اللذين أسأت إليهما فى الحلم كل هذه الإساءة كان حكماً مختلفاً كل الاختلاف ، وكان سلطان الرغبة فى ألا أشاركهما مصيرهما فيما يتصل بمسألة الترقية يبدو لى أضعف من أن يفسر هذا التناقض بين التقديرين : تقدير اليقظة وتقدير الحلم . فلو أن احتياجى إلى أن ألقب بلقب مختلف كان شديداً إلى هذا الحد ، لكان ذلك دليلا على طموح مرضى لا أعهده فى نفسى وأعتقد أنه بعيد عنى . ولست أدرى ما هو حكم الغير ، ممن يعتقدون معرفتى ، فى هذا الصدد . ربما كنت طموحاً حقيقة . ولكن إذا كان الأمر كذلك ، فهذا الطموح قد انصرف منذ أمد بعيد إلى موضوعات أخرى غير لقب الأستاذ المساعد أو منصبه .

من أين — إذن — أتى الطموح الذى ألهمنى هذا الحلم ؟ هنا تحضرنى قصة كثيراً ما سمعتها تحكى فى طفولتى : ذلك أنه اتفق حين ولدت أن تنبأت فلاحة عجوز لأمى السعيدة بوليدها الأول بأنها قد أتت إلى الدنيا برجل عظيم . ولا شك أن أمثال هذه النبوءات شىء كثير الوقوع : فكم فى الدنيا من أمهات آملات وكم فيها من عجائز فلاحات — أو غير فلاحات — ممن هجرتهن قواهن الدنيوية فتحولن جهة الغيب ! ثم إن المتنبئة لن تضيرها النبوءة . أيكون ذلك هو النبع الذى منه كان ظمئى إلى العظمة ؟ ولكننى أذكر

هنا انطباعاً آخر يرجع إلى ما أعقب من سنوات حداثتى ، انطباعاً يزودنا بتعليل أفضل : فقد حدث ذات مساء فى مطعم فى [حديقة] پراتر اعتاد والداى أن يصطحبانى إليه وأنا غلام فى الحادية أو الثانية عشرة من عمرى أن جذب انتباهنا رجل كان ينتقل من مائدة إلى أخرى مرتجلا لقاء هبة صغيرة أبياتاً من الشعر فى أى موضوع يعرض عليه . وأُرسلت فى طلب الشاعر إلى مائدتنا ، فأبدى شكره للرسول ، وقبل أن يسألنا أى موضوع اخترنا ألقى ببضعة أبيات عنى ، ثم أعلن فى غمرة الإلهام أننى على الأرجح صائر فى يوم من الأيام « وزيرا » . وما زلت أذكر أحسن الذكرى أى انطباع أحدثته هذه النبوءة الثانية فى نفسى . لقد كانت تلك أيام وزارة الطبقة المتوسطة[1] ، وكان والدى قد أحضر إلى المنزل منذ قريب صور أولئك الأقطاب البورچوازيين : هربست وجيسكرا وأونجر وبرجر وغيرهم ، وكنا قد أشلعنا الأنوار تكريماً لهؤلاء السادة . بل لقد بلغ من الأمر أن كان بينهم يهود ؛ فكان يهيأ لكل غلام يهودى مجتهد أنه يحمل كرسى الوزارة فى حقيبته المدرسية . ولا بد أن الانطباع الذى تخلف فى نفسى من ذلك العهد قد كان له أثره فى أننى بقيت إلى ما قبل التحاقى بالجامعة بزمن قصير وأنا أنوى أن أدرس القانون ، ولم أعدل إلا فى اللحظة الأخيرة . ومن اشتغل بالطب صدت دونه أبواب الحياة الوزارية من غير رجعة . ونعود الآن إلى حلمى : إننى ألحظ للمرة الأولى أنه ينتقل بى من الحاضر المحزن إلى أيام الوزارة البورچوازية المليئة بالآمال المرحة ، وأنه يبذل ما وسعه من أجل أن يحقق ما كنت أرغب فيه إذ ذاك : فأنا إذ أسىء إلى زميلىّ العالمين الجليلين إلى هذا المدى لأنهما يهوديان ، وإذ أعد أحدهما أبله وأعد الآخر مجرماً — أسلك كأننى كنت الوزير : لقد وضعت نفسى فى موضعه . ياله من انتقام حاسم من صاحب المعالى ! إنه يرفض ترقيتى أستاذاً مساعداً ، وأنا أرد له الكيل بأن أضع نفسى مكانه .

وأمكننى أن ألحظ فى حالة أخرى أن الرغبة التى تثير الحلم — وإن تكن رغبة حاضرة — قد لقيت مع ذلك تعزيزاً قوياً من ذكريات امتدت جذورها بعيداً فى الطفولة . وأنا أفكر هنا فى طائفة من الأحلام كان أساسها الحنين إلى زيارة روما . ولسوف أمكث زمناً طويلا وأنا مكره على أن أرضى هذا الشوق بوساطة الأحلام ؛ ففى هذا الفصل من

---

(١) [Burgermirsterium — وزارة كانت لها آراء من قبيل الآراء المتوارثة عن أحزاب الأحرار ، انتخبت بعد وضع الدستور النمسوى الجديد عام ١٨٦٧ .]

العام الذى أتمكن فيه من الترحال يتحتم على أن أتجنب الإقامة فى روما لأسباب صحية[١]. وهكذا رأيت مرة فى الحلم أننى أنظر من نافذة عربة قطار إلى نهر التيبر وجسر سانت آنجلو، ثم يأخذ القطار فى الحركة ، فيخطر لى أننى لم أطأ المدينة قط . وكان المنظر الذى رأيته فى الحلم مقتبساً عن رسم معروف وقع عليه بصرى برهة فى حجرة جلوس أحد مرضاى . وفى مرة أخرى يقودنى قائد إلى قمة تل ويرينى منه روما وقد تلفعت بالضباب نصف تلفع وبعدت بعداً سحيقاً حتى لأعجب معه من وضوح منظرها . ومحتوى الحلم أكثر ثراء مما أستطيع روايته ، ولكن من السهل أن نستشف فيه فكرة « أرض الميعاد وهى تلوح من بعيد » . والمدينة التى رأيتها للمرة الأولى على هذا النحو ، ملفعة بالضباب ، كانت : لوبك ، وأما التل فقد رأيت أنموذجه فى — جلا يخنبرج . وفى حلم ثالث أرانى أخيراً فى روما — على ما حدثنى به الحلم — بيد أنى — لخيبة أملى — أرى منظراً لا يشبه المدن فى شىء ، أرى : نهيراً حلك ماؤه وحملت إحدى ضفتيه صخوراً سوداء وانتشرت على الأخرى مراع انتثرت فيها أزهار كبيرة بيضاء، ثم ألحظ رجلا يدعى السيد تسوكر (وهو رجل لى به بعض المعرفة) وأعقد العزم على أن أسأله عن الطريق المؤدية إلى المدينة . وجلى أننى كنت أحاول عبثاً أن أرى فى الحلم مدينة لم أرها فى حياة اليقظة قط . وإنى إذ أجزئ مشهد الحلم إلى عناصره أرى الأزهار البيضاء تعود بى إلى مدينة راڤنا التى أعرفها والتى احتلت مكانة روما كعاصمة لإيطاليا — بعض الزمن على الأقل . فى المستنقعات المحيطة براڤنا وجدنا أجمل الزنابق المائية نامية فى الماء الأسود . وكنا نكابد العناء فى اقتطافها من الماء ، فجعلها الحلم تنبت فى المرعى، مثل النرجس فى آوسى . وأما الصخرة السوداء القريبة ذلك القرب من الماء فتذكرنى تذكيراً شديداً بوادى التپل ، على مقربة من كارلسباد . وتمكننى الآن « كارلسباد » من أن أفسر تلك اللمحة العجيبة ، وأعنى بها سؤالى السيد تسوكر عن الطريق : إن المادة التى نسج منها الحلم قد تضمنت فى هذا الموضع قصتين من تلك القصص اليهودية، الممتعة، المنطوية على علم عميق بأحوال الدنيا ، هو فى غالبية الأحيان مرير ، والتى يطيب لنا كثيراً أن نستشهد بها فى

---

(١) [١٩٠٩ :] لقد تعلمت منذ ذلك الحين أن تحقيق الرغبات التى يظل المرء زمانا طويلا وهو يعتقد امتناعها إنما يحتاج إلى قليل من الشجاعة . [١٩٢٥ :] ومنذ هذا الحين وأنا من حجاج روما المواظبين على زيارتها . [سوف يلمح القارئ من هذه الأحلام مدى الأهمية النفسية التى كانت ترتبط فى نفس فرويد بفكرة زيارة مدينة روما ، وهو أمر يتضح فى مواضع كثيرة من رسائله إلى فليس . هذا وقد حقق فرويد تلك الرغبة للمرة الأولى فى صيف عام ١٩٠١ .]

أحاديثنا ورسائلنا . وأما الأولى فهى قصة « البنية » ، وهى تروى كيف يدلف يهودى مسكين إلى قطار كارلسباد السريع دون تذكرة ، ثم يفتضح أمره ، ولا يمر المفتش للمراجعة إلا طرده من القطار وزاد إغلاظاً إليه ، ثم يلتقى به صديق فى إحدى محطات سكة الأوجاع هذه ، فيسأله عن وجهته ، فيجيبه : « إلى كارلسباد — إذا احتملت بنيتى »[1] . وتنتقل ذاكرتى إلى القصة الثانية ، وهى تدور حول رجل يهودى لا يعرف الفرنسية ، كلف أن يسأل فى باريس عن شارع ريشليو . وقد كانت باريس أيضاً هدفاً لأشواقى سنوات طوالا . والسعادة التى أحسستها وأنا أنزل قدمى على رصيفها لأول مرة قد لاحت لى بشيراً بتحقق أمنيات أخرى . ثم إن السؤال عن الطريق كان إشارة مباشرة إلى روما ؛ فإلى روما تذهب كل الطرق كما نعلم . وكذلك اسم تسوكر [أى سكر] : إنه يشير من جديد إلى كارلسباد ؛ فمن عادتنا أن نرسل إلى هذا البلد مرضى السكر ، وهو مرض مرده البنية . ولقد كان الحافز إلى هذا الحلم اقتراحاً من صديقى البرلينى [فليس] بالالتقاء فى براج ، فى خلال عيد الفصح . وكان بين الموضوعات التى كان مفروضاً أن نتحدث فيها موضوع له رباط آخر « بالسكر » « وبمرض السكر » .

ويعود بى إلى روما من جديد حلم رابع تلا الحلم السابق بزمن قليل : رأيت أمامى ناصية طريق ، وأدهش لكثرة ما أراه من اللافتات المكتوبة باللغة الألمانية . وكنت فى اليوم الذى سبق هذا الحلم قد كتبت إلى صديقى أخبره — وكأنما كنت أقرأ الغيب — أن براج لن تكون بالمكان الذى يدخر لسائح المانى إقامة طيبة . وهكذا يعرب الحلم فى آن واحد عن الرغبة فى ملاقاة صديقى فى روما بدل ملاقاته فى مدينة بوهيمية ، ثم عن الرغبة فى أن تحظى اللغة الألمانية بمزيد من التسامح فى براج — وهى رغبة ترجع فى الأرجح إلى أيام التلمذة . ولا بد أننى كنت أفهم اللغة التشيكية فى السنوات الأولى من طفولتى ؛ فقد ولدت بمدينة صغيرة فى موارفيا وسط شعب سلافى . ولقد سمعت مرة وأنا فى السابعة عشرة من عمرى بيتا من الشعر الذى يغنى للأطفال ، فعلق البيت فى ذاكرتى دون ما جهد منى حتى أننى لأستطيع ترديده إلى اليوم — وإن كنت لا أدرك شيئاً من معناه . وهكذا لا تخلو هذه الأحلام أيضاً من روابط تربطها بطفولتى الأولى .

---

(١) [يشير فرويد إلى هذه القصة فى كثير من رسائله إلى فليس : رسالة ٥٤ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١٣٠ مثلا . وهو فى الرسالتين الأخيرتين يستخدم روما وكارلسباد رمزاً الأهداف التى لا تدرك .]

وكان فى خلال رحلتى الإيطالية الأخيرة التى حملتنى إلى ما وراء بحيرة تراسيمن أننى اكتشفت فى النهاية — بعد أن رأيت التيبر وقفلت راجعاً على مضض وأنا على ثمانين كيلو متر من روما — كيف تعزز شوقى إلى المدينة الخالدة بانطباعات حداثتى . فقد كنت أفكر فى رحلة تحملنى فى العام القادم إلى ناپولى مارا بروما حين خطرت لى تلك الجملة التى لا أشك فى أننى قرأتها فى نص من نصوصنا المأثورة[1] : « إنه لسؤال : أى الرجلين كان أنفد صبرا وهو يذرع الحجرة طولا وعرضاً بعد أن قر قراره على الذهاب إلى روما : وكيل ناظر المدرسة ڤينكلمان أو القائد الأعظم هانيبال ؟ » نعم ، إننى فى الحقيقة كنت أقفو خطى هانيبال . فقد كتب على ، مثلما كتب عليه ، ألا أرى روما . وهو أيضاً قد توجه إلى كامپانيا حين كان العالم أجمع ينتظره فى روما . ولكن هانيبال الذى انعقدت بينى وبينه تلك المشابهة كان بطلى الأثير وأنا ما زلت بالمدرسة . فمشاعرى ، شأن الكثير من الغلمة بتلك السن . قد انحازت فى حروب قرطاجنه إلى جانب القرطاجنيين وليس إلى جانب الرومان . ثم حين أخذت أدرك فى سنوات المدرسة الأخيرة ما يجره على المرء انتماؤه إلى جنس غريب ، وحين نبهتنى مشاعر العداء السامى بين الأقران إلى أننى لم يعد لى مفر من أن أتخذ لى موقفاً — حينئذ زاد أيضاً شخص القائد السامى علوا فى ناظرى . فهانيبال وروما كانا يرمزان فى عين الصبى للصراع بين عناد اليهودية ونظام الكنيسة الكاثوليكية . ومنذ ذلك الحين وحركة العداء السامى لا تزيد آثارها فى حياتنا الانفعالية إلا خطورة ، فأعان ذلك على تثبيت أفكار تلك الأيام المبكرة وأحاسيسها . وهكذا صارت رغبة الذهاب إلى روما فى حياتى الحالمة ثوباً ورمزاً تكتسيها رغبات أخرى أشد احتداماً ، رغبات يقتضى تحقيقها بذل الجهد بكل دأب القرطاجنى وبكل عزوفه عما ليس من قصده ، وإن بدا فى الحاضر أن تحقيقها لن يلقى من مواتاة القدر إلا ما لاقته الرغبة التى صاحبت هانيبال فى حياته جمعاء ، رغبة الدخول فى روما .

والآن أعثر لأول مرة على خبرة الحداثة التى ظلت تعرب إلى اليوم عن سلطانها فى كل هاته الانفعالات والأحلام . ربما كنت فى العاشرة أو فى الحادية عشرة من عمرى حين بدأ والدى يصطحبنى فى نزهاته ويكاشفنى فى أحاديثه بنظراته فى أمور هذا العالم الذى نحيا فيه . وهكذا حدثنى مرة بالقصة الآتية لكى يرينى كم تفضل الأيامُ التى

---

(١) إن الكاتب الذى قرأت عنده هذه الجملة لا بد أن يكون — من غير أدنى شك — چان پول .

ولدتُ بها أيامه ، قال : كنت وأنا شاب أتنزه فى يوم سبت فى شوارع البلد الذى ولدتَ به وقد لبست لباساً حسناً ووضعت على رأسى قلنسوة من الفراء وإذا مسيحى يقبل فيضرب بقبعتى فى الوحل ، صائحاً : أيها اليهودى انزل عن الرصيف ! — فسألت والدى : وماذا فعلت ؟ — فأجابنى فى هدوء : نزلت إلى عرض الطريق والتقطت القلنسوة . لقد بدا لى ذلك مسلكاً مجرداً من البطولة إذ يصدر عن الرجل الضخم القوى الذي كان يقودنى ممسكاً بيدى — أنا الولد الصغير . وقارنت هذا الموقف الذى لم يرضنى بآخر أكثر تلاؤماً ومشاعرى ، قارنته بالمشهد الذى فيه يستحلف هاميلكار باركاس[١] — أمام مذبح العائلة — ابنه هانيبال إلا أن يأخذن بالثأر من الرومان . ومنذ ذلك الحين وهانيبال يحتل مكاناً بين تخاييلى .

وأظننى قادراً بعد على تأثر هذه الحماسة للقائد القرطاجنى إلى عهد أقدم من عهود طفولتى ؛ بحيث لا يخرج الأمر هنا أيضاً عن أن يكون تحويلا إلى حامل [أى موضوع] جديد لعلاقة عاطفية متكونة من قبل . فقد كان من أوائل الكتب التى وضعت بين يدى وأنا طفل حديث العهد بالقراءة كتاب تيير « تاريخ القنصلية والإمبراطورية » . وما زلت أذكر كيف ألصقت بالظهور المسطحة لجنودى الخشبية قصاصات من الورق تحمل أسماء القواد الأمبراطوريين ، وأذكر أن ماسينا (باليهودية : منشا) كان بطلى المفضل إذ ذاك[٢] . (وهو تفضيل يفسر أيضاً من غير شك بكونى قد ولدت فى ذات التاريخ ، قرناً بعده) .[٣] ونابليون خليفة هانيبال ؛ لعبوره جبال الألب . وربما أمكن أن أتتبع نشأة هذا المثل الأعلى الحربى إلى زمن أقدم من طفولتى : إلى علاقتى فى خلال السنوات الثلاث الأولى من حياتى بولد يكبرنى بعام واحد ، وإلى المشاعر التى لا بد قد أثارتها فى نفس أضعف الرفيقين تلك العلاقة التى كانت طوراً صداقة وطوراً حرباً[٤] .

وكلما تعمق المرء تحليل أحد الأحلام ، زاد عثوره على آثار خبرات الطفولة التى كان لها نصيبها بين مصادر المحتوى الكامن لهذا الحلم .

---

(١) [١٩٠٩ :] جاء هذا الاسم فى الطبعة الأولى على تلك الصورة : هاسدروبال . وهو خطأ عجيب فسرته فى كتابى : سيكوباثولوجية الحياة اليومية (١٩٠١ ب ، الفصل العاشر) .

(٢) [١٩٣٠ :] وأشير عرضا إلى أن الأصل اليهودى لهذا القائد موضع شك .

(٣) [أضيفت هذه الجملة عام ١٩١٤ .]

(٤) [سيتحدث فرويد عن هذه العلاقة كثيراً فيما بعد .]

وقد علمنامن قبل (ص٥٩–٦٠) أنه يندرغاية الندرة أن يستحضر الحلم الذكريات الاستحضار الذى يجعلها تؤلف – دون أن ينالها اقتضاب أو تحريف – كل المحتوى الظاهر للحلم . ومع هذا فهناك أمثلة على ذلك لا يتطرق إليها الشك . وفى استطاعتى أن أضيف إليها بضعة أمثلة أخرى تتعلق من جديد بمشاهد مستمدة من الطفولة . فقد اتفق مرة أن واجه الحلم أحد مرضاى باستحضار كاد يخلو من التشوية لواقعة جنسية تبين على الفور أنها ذكرى صادقة . والحقيقة هى أن هذه الذكرى لم تضع قط من حياته المستيقظة كل الضياع ، ولكنها غمضت غموضاً شديداً وكان بعثها أثراً من آثار العمل الذى تم من قبل فى خلال التحليل . فالحالم كان قد ذهب وهو فى الثانية عشرة من عمره ليزور رفيقاً من رفاق المدرسة لزم الفراش حين تعرى هذا الرفيق تعرياً جاء فى أغلب الظن عفوا بحركة فى فراشه . فلما رأى المريض أعضاء الولد التناسلية وليه نوع من الدافع القهرى ، فعرى نفسه وأمسك بعضو الولد الآخر الذى نظر إليه مستنكراً دهشا ،فأسقط فى يده وخلى . وقد أعاد الحلم هذا المشهد بعد ذلك بثلاثة وعشرين عاماً ، وأعاده بكل المشاعر التى صاحبته ، إلا أنه عُدِّل بحيث أخذ الحالم الدور السلبى بدل الإيجابى ، بينما استبدل برفيق المدرسة شخص معاصر .

والقاعدة المستيقنة هى أن مشهد الطفولة لا يرد فى محتوى الحلم الظاهر إلا تلميحاً ، ولا معدى عن استخلاصه من الحلم بالتفسير . والأمثلة على ذلك لا تحمل روايتها كبير إقناع ؛ فليس ثمت فى معظم الأحيان شاهد آخر على وقوع خبرات الطفولة هذه : إنها – وقد وقعت فى سن مبكرة جداً – لا ترجع الذاكرة تعرفها . وإن حقنا فى أن نستدل عامة بالأحلام على وقوع مثل هذه الخبرات إنما يخلص من خلال العمل التحليلى من جملة من العوامل تبدو خليقة بالركون إليها من حيث اتفاقها فيما بينها . فإذا انتزعت هذه الإشارات الراجعة إلى خبرات الطفولة من محيطها بغية تفسير الحلم ، كان من المحتمل الا تترك إلا تأثيراً قليلا ، وبخاصة إذا كنت لا أذكر مرة واحدة كل المادة التى يستند إليها التفسير . بيد أننى لن أدع ذلك يردنى عن رواية بعض الأمثلة .

١

بين مريضاتى مريضة تمتاز أحلامها جميعاً بذلك الطابع : وهو كون الحالمة تظهر « مُعْجَلة »[١] . فهى تعجل لكى تصل فى الميعاد، أو تعجل لئلا يفوتها القطار ، وهكذا . وفى أحد أحلامها رأت أنها تتأهب لزيارة إحدى صديقاتها وقالت لها أمها أن تذهب راكبة لاماشية، ولكنها تنطلق جريا ولا تكف فى أثناء ذلك عن الوقوع . — لقد مكنتنا المادة المنبعثة فى سياق التحليل من التعرف على ذكريات تتصل بهياج الأطفال (ونعلم ما يسميه أهل ڤيينا « هيجة »[٢]). وأشار أحد أحلامها بخاصة إلى تلك المزحة التى يحبها الأطفال كثيراً ، وهى أن يكرروا جملة : « جرت البقرة حتى وقعت » بسرعة شديدة حتى تبدو الجملة كأنها كلمة واحدة — وهو أيضاً ضرب من " الجرى" . وقد استحضرت الذاكرة كل هذا الجرى البرىء بين الصديقات الصغيرات ؛ لأنه كان يخفى وراءه ذكريات أخرى أقل براءة .

٢

وها هو ذا حلم ثان لمريضة أخرى : إنها فى حجرة كبيرة انتصبت فيها آلات من كل نوع ، شىء أشبه بما كانت تتخيله عن أحد معاهد تقويم الأجسام . وتسمع أذنى لا وقت عندى وأنه لا معدى لها عن أن تقبل معالجتها فى وقت واحد مع خمسة آخرين . ولكنها تأبى وتمتنع عن الرقود فى السرير المخصص لها — أو فى الشىء الذى ظهر على أنه السرير ، أياً كانت حقيقته . وتقف فى الركن وتنتظر أن أقول لها : إن ذلك غير صحيح . وفى هذه الأثناء يضحك منها الآخرون ، قائلين : إنه دلالها المعهود . — فى الوقت نفسه : كأنما كان عليها أن ترسم مربعات كثيرة صغيرة .

يرتبط الجزء الأول من هذا الحلم بالعلاج وبتحويلها مشاعرها إلىّ . وأما الجزء الثانى فينطوى على إشارة إلى مشهد من مشاهد الطفولة . ووصل بين الجزئين ذكر السرير . فمعهد تقويم الأجسام يرجع إلى حديث لى قارنت فيه العلاج من حيث مدته وطبيعته بعلاج

---

(١) [من فعل zu hetzen ويعنى عجل ، وجرى وراء الصيد أو طرد وعلى سبيل المجاز اضطهد ، ثم هيج وأثار .]

(٢) [eine Hetz وهو الحفل المرح الحافل بالاستثارة الذى يترك كل مشترك فيه لنفسه العنان .]

يستهدف تقويم الجسم . ولقد اضطررت عند ابتداء علاجها إلى أن أخبرها أنى لا أستطيع أن أخصص لها فى الوقت الحاضر إلا وقتاً قليلا ، ولكننى سوف أفرغ لها ساعة كاملة كل يوم فيما بعد . وحرك ذلك حساسيتها القديمة التى هى سمة يتميز بها الأطفال المهيأون للهستريا ؛ فرغبتهم فى الحب لا ترتوى . ومريضتى كانت صغرى ستة إخوة وأخوات (ومن ثم : مع خمسة آخرين .) وكانت لذلك الطفلة المحببة إلى والدها ، ولكن يبدو أنها كانت ترى رغم ذلك أن والدها لا يفرغ لها سوى القليل من الوقت والالتفات . — وأما كونها تنتظر حتى أقول لها : إن ذلك غير صحيح ، فأتاه ما يلى : أحضر صبى طرزى ثوباً إليها ، فسلمته النقود ، ثم بعد ذلك سألت زوجها هل هى ملزمة بأن تدفع النقود مرة ثانية لو أن الغلام أضاعها ، فأجابها زوجها بغية معاكستها : يقينا (المعاكسة فى الحلم) ، وظلت تعاود السؤال المرة تلو المرة وهى تنتظر أن يقول لها فى النهاية : إن ذلك غير صحيح . وهكذا أمكن أن نستخلص أن أفكار الحلم كانت تتضمن تلك الفكرة : هل هى ستلزم بأن تدفع ضعف المبلغ حين أفرغ لها ضعف الوقت ؟ فكرة شحيحة تشمئز لها نفسها . (ومن الشائع أن يحل إمساك المال محل قذارة الطفولة فى الحلم ؛ وكلمة "باعث على الاشمئزاز"[1] هى هنا حلقة الوصل .) فلو صح أن كل تلك الفقرة حول انتظارها حتى أقول ذلك لها ... الخ . — إنما هى ترجمة مسهبة لكلمة «باعث على الاشمئزاز» ، لكان مما يتفق وذلك الوقوف فى الركن وإباء الرقود فى السرير باعتبارهما عنصرين من مشهد طفلى تكون قد وسخت فيه سريرها فكان عقابها أن وقفت فى الركن وقد هددت بأن بابا سوف يكف عن حبها ، بينما ضحك منها إخوتها وأخواتها ... الخ . وأما المربعات الصغيرة فكانت تحيل إلى أبنة أختها — أو أخيها — الصغيرة التى أرتها تلك الحيلة الحسابية التى تتلخص فى أن تكتب أرقاماً داخل تسعة مربعات — على ما أعتقد — بحيث تجمعها فى أى اتجاه فيكون المجموع خمسة عشرة .

٣

وها هو ذا حلم أتاه رجل : يرى صبيين يتضاربان ، إنهما من غير شك صبيا صانع براميل ، كما يستنتجه من العدد المبعثرة حولهما . يطرح أحد الولدين الآخر أرضاً . يحمل الولد المطروح قرطا ذا أحجار زرقاء

(١) [Schmutzig وهو يستخدم للقذارة والبخل الشديد على السواء .]

إنه يندفع نحو ضاربه رافعاً عصاه لكى يقتص منه . يلوذ الضارب بامرأة تقف بجوار حاجز خشبى. كأنها كانت أمه . إنها امرأة من الطبقة العاملة ، وهى تقف وظهرها إلى الحالم. ولكنها تستدير إليه فى النهاية وتصوب إليه نظرة مروعة حتى ليولين الإدبار وقد ملكه الرعب . كان يسع المرء أن يرى اللحم الأحمر لخفنيها الأسفلين وقد برز تحت عينيها .

إن هذا الحلم يستغل أحداثاً تافهة مما وقع فى اليوم السابق استغلالا واسعا . فبالأمس رأى الحالم فى الطريق حقيقة ولدين طرح احدهما الآخر أرضا . فلما تقدم منهما ليفض العراك لاذا بأهداب الفرار . — أما كونهما صبيي صانع براميل ، فلا يفسره إلا حلم تال استخدم فيه هذا التعبير : « خرق قاع البراميل » [أى : أفرغ ما بنفسه] . — وأما الأقراط ذات الأحجار الزرقاء فيقول الحالم إن خبرته قد دلته على أن البغايا هن اللائى يحملنها بنوع خاص . وعلى ذلك يخطر له بيت من أغنية شعبية ذائعة عن ولدين : «والولد الثانى كان اسمه مارى» (أى أنه كان فتاة). — والمرأة الواقفة ؟ إنها تجعله يتذكر أنه قد ذهب بعد مشهد الولدين لكى يتنزه على شاطىء الدانوب ، وأنه انتهز خلوته لكى يتبول بجوار حاجز خشبي . ثم بعد ذلك بقليل صادف فى طريقه سيدة مسنة محتشمة الرداء ابتسمت له فى لطف وأرادت أن تعطيه بطاقة من بطاقات الزيارة .

ولما كانت المرأة تقف فى الحلم كما وقف هو من قبل عند تبوله، فالأمر يتعلق بامرأة تتبول . ومن هنا كانت « النظرة » المروعة ، وكان بروز اللحم الأحمر الذى لا يمكن أن يشير إلا إلى تجويف أعضاء المرأة حين تجلس القرفصاء ، تلك الأعضاء التى رآها فى طفولته فترجع من بعد إلى ذاكرته فى صورة « لحم منتفش » فى صورة « جرح » . والحلم يوحد بين مناسبتين مكنتاه وهو صبى صغير السن من أن يرى أعضاء فتاة صغيرة : إذ طرحها على الأرض مرة ، وحين رآها تتبول مرة أخرى ، وهو — كما يتبين من بقية الحلم — لا يزال يحفظ ذكرى عقاب أو وعيد أتاه من والده على ما أبداه فى هاتين المناسبتين من التطلع الجنسى .

(٤)

وأما الحلم الآتى — وهو لسيدة مسنة — فتكمن وراءه طائفة كاملة من ذكريات

الطفولة ، أدمجت بقدر الإمكان فى تخييل واحد :

تخرج متعجلة فى قضاء بعض الحاجيات . تقع على ركبتها فى شارع جرابن كأنما أصابتها كبوة . يجتمع من حولها حشد من الناس ومن الحوذية بنوع خاص ، لكن ما من أحد يعينها على النهوض . تبذل هى جهدها مرات متعددة من غير جدوى . لا بد أنها قد أفلحت أخيراً ، فها هى ذى توضع فى إحدى العربات لكى تقودها إلى منزلها . يقذف البعض وراءها ، من خلال نافذة العربة ، بسلة كبيرة مثقلة (من قبيل ما يستعمل فى التسوق .)

تلك هى السيدة التى تظهر دائماً معجلة فى أحلامها ، مثلما كان شأنها فى طفولتها . وجلى أن المشهد الأول من الحلم مستمد من رؤيتها جوادا يقع ، كما أن الكبوة تشير أيضاً إلى سباق الجياد . والحالمة كانت فارسة فى شبابها ، وأرجح الظن أنها ، وهى بعد أكثر شباباً ، كانت أيضاً جوادا . وإلى السقوط ترجع ذكرى من أوائل ذكريات طفولتها ، عن ابن البواب البالغ من العمر سبعة عشر عاماً ؛ فقد سقط يوما فى عرض الطريق وقد نزلت به نوبة من الصرع ، وأحضر إلى المنزل محمولا فى عربة . إنها بالطبع لم تعلم ذلك إلا سماعاً ، ولكن فكرة نوبات الصرع ، فكرة « النازلة » ، قد اكتسبت سلطاناً عظيما على مخيلتها ، وكان لها فيما بعد أثرها فى تشكيل نوباتها الهستيرية . — وإذا حلمت امرأة بالسقوط كان فى حكم القاعدة أن لذلك معنى جنسيا : إنها تغدو "ساقطة" . وإذا كان هذا التفسير يثير شكا فهو لا يثير فى حلمنا إلا أقله ؛ لأنها تسقط فى طريق جرابن ، أى فى ذلك المكان من ڤيينا الذى عرف بكونه مراح العاهرات ومغداهم . وأما سلة التسوق فتحتمل أكثر من تفسير : فهى ، من حيث أنها سلة - رفض[1] ، تذكرها بالسلال المتعددة التى وزعتها أول الأمر على المتيمين بها ، ثم عادت بدورها — كما تعتقد — فتلقتها . ومن ثم جاء أنه ما من أحد يريد أن يعينها على النهوض — وهو ما تؤوله بنفسها على أنه يعنى الازدراء بها . وتذكرها سلة السوق بعد ذلك بتخييلات سبق ظهورها فى خلال

---

(١) [Einkaufskorb = سلة التسوق . ولفظ Korb له معنيان : السلة والرفض أو الإباء . و " أعطته سلة " تعبير ألمانى جار ، بمعنى : صدت حبه أو طلبه الزواج منها .]

تحليلها ، وكان مدارها أنها قد تزوجت زواجاً دون منزلتها بكثير ، حتى صارت تذهب إلى السوق بنفسها لكى تقضى منه حاجياتها . وسلة التسوق — أخيراً — قد تكون شارة يدل بها على خادم . وفى هذا الصدد تحضرها ذكريات أخرى من طفولتها : الذكرى الأولى عن طاهية طردت لأنها سرقت ؛ إنها — أيضاً — قد سقطت على ركبتيها تطلب الغفران . لقد كان عمر الحالمة إذ ذاك اثنتى عشرة سنة . وأما الذكرى الثانية فعن خادم طردت من المنزل لعلاقة بينها وبين الحوذى — ونقول عرضاً : إن الحوذى قد تزوج الخادم بعد ذلك . وهكذا ترينا هذه الذكرى أحد مصادر الحوذية فى الحلم (إلا أن هؤلاء لا يأخذون بساعد المرأة الساقطة ، على خلاف ما قد وقع فى الحقيقة) . ويبقى علينا أن نفسر قذف السلة ، وقذفها من خلال النافذة : إن ذلك يذكرها بتشييع الطرود بسكة الحديد ، وبعادة العشاق فى الريف أن يناجوا محبوباتهم ليلا بالنوافذ ، وكذلك ببضعة انطباعات صغيرة تركتها حياتها فى الريف : كيف رمى سيد سيدة ببضعة برقوقات زرقاء من خلال نافذتها . وكيف فزعت أختها الصغرى يوماً لأن معتوها عابراً تطلع إلى غرفتها من خلال النافذة . ومن خلال هذا كله تنبثق ذكرى معتمة من سنتها العاشرة عن مربية اشتبكت وهم بالريف فى علاقة غرامية — يحتمل أن تكون الفتاة قد أدركت شيئاً منها — مع أحد الخدم ، فكان جزاؤها أن "شيعت" من المنزل و"قذفت إلى الخارج" (وفى الحلم الضد : "قذف إلى الداخل") — وهى قصة كنا قد اقتربنا منها من وجهات أخرى متعددة . بيد أن متاع الخادم أو صندوقها يسمى فى ثيبنا على سبيل الاستخفاف «بالسبع برقوقات» : « احزمى برقوقاتك السبع وانزحى! »

إن مجموعتى تزخر بالطبع بأحلام كهذه من أحلام المرضى ، يسوق تحليلها إلى انطباعات من الطفولة لم تعد تذكر إلا ذكرا غامضاً ، أو لا تذكر البتة ، انطباعات كثيراً ما ترجع إلى السنوات الثلاث الأولى من الحياة . بيد أن تطبيق النتائج المستخلصة منها على الأحلام عامة عمل غير مأمون . فأصحابها كانوا دائماً من العصابيين ، وبخاصة هستيريين . فمن الجائز أن يكون نصيب المشاهد الطفلية فى أحلامهم راجعاً إلى طبيعة العصاب عندهم وليس إلى ماهية الحلم . بيد أننى وأنا أفسر أحلامى نفسى — وهو مع ذلك تفسير لا أفعله من جراء أعراض مرضية بالغة — يتفق لى بمثل تلك الكثرة أن أعثر

فى محتوى الحلم الكامن ، وأنا خالى البال ، على مشهد من مشاهد الطفولة ، وأن أرى مجموعة كاملة من أحلامى ترتبط دفعة واحدة بمستدعيات تتشعب من خبرة وقعت فى طفولتى . وقد سقت من قبل أمثلة على ذلك ، وسوف أسوق أمثلة أخرى منها فى مناسبات شتى . ولعل خير ما أختتم به هذا الجزء كله هو أن أسرد بعضا من أحلامى تلتقى فيه مناسبات حديثة بخبرات من الطفولة انسحب عليها النسيان دهراً طويلا ، فكانت جميعاً مصادر للحلم .

(١) أويت إلى الفراش وأنا متعب جائع ، ثم أخذت حاجات الحياة الكبرى تعلن عن نفسها ، فكان أن حلمت الحلم الآتى : أذهب إلى المطبخ فى طلب بعض الحلوى . هناك ثلاث نساء واقفات ، إحداهن هى مضيفة النزل . إنها تدير شيئاً فى يدها كما لو كانت تصنع فطيراً . تجيبنى أن على بالانتظار حتى تفرغ (لم يكن من الواضح أنها قد تكلمت) ينفد صبرى وانصرف متأذيا . أرتدى معطفاً ، ولكن المعطف الذى أجر به أولا مفرط الطول . أخلعه وأدهش إذ أراه محلى بالفراء . أرتدى معطفاً ثانيا له ذيل طويل ، موشى برسوم تركية . يقبل رجل غريب ، ذو وجه مستطيل ولحية مدببة ، ويمنعنى من ارتدائه قائلا : إن المعطف معطفه . أريه أن المعطف مغطى كله بوشى تركى . يسألنى : « وما لك و (الرسوم ، الذيول . . .) التركية ؟ ولكننا سرعان ما نصبح صديقين حميمين .

عندما أخذت أحلل هذا الحلم ، اتجه خاطرى على غير توقع إلى أول رواية قرأتها — ولعلى كنت إذ ذاك فى الثالثة عشرة من عمرى [1] — وأقول قرأتها والحقيقة هى أننى بدأتها من نهاية المجلد الأول . وما علمت قط اسم الرواية ولا اسم مؤلفها ، ولكن خاتمتها لا تزال حية فى ذاكرتى : يتردى البطل فى هاوية من الجنون وهو يردد أسماء النساء الثلاث اللائى كان لهن فى حياته أعظم النصيب من سعادتها ومن شقائها . وكان پيلاجى أحد هذه الأسماء . ولست أعلم بعد ما أنا صانع بهذا الخاطر فى التحليل . وههنا تنبثق فى خاطرى — بصدد النساء الثلاث — آلهات القدر الثلاث اللائى ينسجن مصائر الناس . وأعلم أن إحدى النساء الثلاث — وأعنى المضيفة فى الحلم — هى الأم التى تهب الحياة ثم تعطى الحى (كما كان الشأن معى) أول غذاءه . إن الجوع والحب يلتقيان على صدر المرأة . والقصة تُروى عن شاب غدا من كبار المعجبين بالجمال الأنثوى ، دار الحديث عن جمال المرضع التى غذته وهو وليد ، فأعرب عن أسفه إذ لم ينتهز الفرصة بخير مما فعل . وإن

---

(١) [لا شك فى أن فرويد يعنى أول رواية من أدب المحدثين ؛ فمن المقطوع به أنه كان قد قرأ معظم الأدب الألمانى المأثور وهو بتلك السن .]

أن من عادتى أن أستعين بهذه القصة لأوضح بها عامل التأثير البعدى[١] فى ميكانيكية الأعصبة . كانت إحدى الآلهات — إذن — تفرك يديها كأنها تصنع فطيراً : إنها لمشغلة عجيبة بالقياس إلى إحدى آلهات القدر[٢] ، ولا بد لها من إيضاح عاجل ! إن هذا الإيضاح تحمله ذكرى أخرى ، أقدم عهدا ، من ذكريات طفولتى : فقد كان المفروض — وأنا طفل فى السادسة أتلقى من أمى أول دروسى — هو أن أصدق أننا جعلنا من طين وأننا — إذن — إلى الطين نعود ، ولكن النظرية لم ترقنى وارتبت فى أمرها ، وحينئذ فركت أمى كفيها — مثلما تفعل حين تصنع الفطير سوى أنه لم يكن عجين بين يديها — ثم أرتنى ما انفرك من القشور الصغيرة السوداء لطبقة الجلد الخارجية ، برهاناً على الطين الذى صنعنا منه . لقد كان دهشى لهذا البرهان العيانى لا يعرف حداً ، وكان أنى أسلمت نفسى لما سمعته من بعد يؤدى فى تلك العبارة : إن عليك للطبيعة ميتة[٣] . وهكذا فآلهات القدر هن حقاً من أجد حين أذهب إلى المطبخ ، مثلما كنت أفعل كثيراً فى طفولتى حين كنت أحس الجوع ، وكانت أمى تأمرنى — وهى بجانب النار — بأن أنتظر حتى يعد الغذاء . — والآن إلى الفطير [بالألمانية كنودل] ! إن بين من علمونى فى الجامعة معلما واحداً على الأقل — وهو على التحقيق من أدين له بمعرفتى فى علم الأنسجة (الطبقة الخارجية للجلد) — سوف يذكره اسم كنودل [من حيث هو اسم علم] بشخص اضطر

---

(١) [Nachträglickheit من Nachtraglich بمعنى « من بعد» . والمراد هو أن الخبرة الماضية لا تحدث تأثيرها عند وقوعها ، بل بعد أن تنقضى حقبة من الزمن . وتأثيرها بهذا المعنى يكون « فعلا مرجأ » a deferred action — وتلك بالفعل هى الترجمة المطردة التى يستعملها ستراشى لهذا الاصطلاح . غير أن هذه الترجمة تغفل بعدا آخر من أبعاد هذه الفكرة : ذلك أن « من بعد » تعنى أيضاً أن الخبرة لا تحدث تأثيرها إلا بعد أن يعود عليها صاحبها فينظمها تنظيما جديدا ويخلع عليها معنى لم يكن لها فى المبدأ . ففى القصة التى يشير إليها فرويد يخلع الشاب معنى تناسليا على علاقة لم يكن لها سوى طابع فى . وهذا المعنى الثانى هو من غير شك المعنى الأهم وهو الذى يجعل للفكرة أصالة يستحيل معها ردها إلى تصورات علم النفس التجريبى . ولم نجد — للإبقاء على المعنيين — خيرا من أن نقول : عامل « التأثير البعدى » .]

(٢) [من المعلوم أن أولى آلهات القدر .— وهى المشرفة على الولادة — كانت تمسك المغزل ، وكانت الثانية تدير البكرة ، وأما الثالثة فتقطع خيط الحياة .]

(٣) إن كلا الانفعالين اللذين صحبا هذا المشهد : الدهش والاستسلام للمحتوم — قد أتانى من قبل فى حلم سبق هذا الحلم بوقت قصير وكان أول ما ذكرنى بتلك الخبرة الطفلية [هذا ولقد استشهد فرويد بتلك الكلمات فى إحدى رسائله إلى فليس (الرسالة رقم ١٠٤) ناسبا إياها إلى شكسبير والنص الصحيح من شكسبير هو : « إن عليك لله ميتة » (الجزء الأول من هنرى الرابع ، الفصل الخامس ، المشهد الأول ، يقوله الأمير هال لفالستاف .) ولكن « وفى دينه للطبيعة » كان تعبيرا ذائعا فى زمن جوته ، يعرب عن فكرة العصر عن الموت .]

معلمى إلى مقاضاته لأنه نقل كتاباته . وأن يرتكب المرء مثل هذا النقل [پلاجيات] ، وأن يستحل لنفسه كل ما صادفه وإن كان ملكاً للغير — ذلك ما ينتقل بنا ، كما هو ظاهر ، إلى الجزء الثانى من الحلم الذى أعامل فيه مثلما عومل سارق المعاطف الذى زاول حرفته حيناً فى قاعات محاضراتنا . ولقد استخدمت كلمة « پلاجيات » [نقل أو سرقة أدبية] عن غير قصد لا لشىء سوى أنها خطرت لى ، ولكنى ألحظ الآن أن من الممكن أن تكون هذه الكلمة قد استخدمت جسراً [بروكه بالألمانيه،وهو أيضا اسم أحد أساتذة فرويد] يصل بين الأجزاء المختلفة لمحتوى الحلم الظاهر . فسلسلة المستدعيات : پيلاجى — پلاجيات — پلاجيوستوم[1] (أى سمك القرش) — مثانة السباحة عند السمك[2] ، قد وصلت الرواية التى قرأتها قديماً بحادثة كنودل وبالمعاطف التى تشير من غير خفاء إلى عدة لها وجه استخدامها الجنسى [ارجع إلى ص ٢٠٧] . (أنظر حلم مورى [عن السلسة الجناسية] : كيلو — لوتو ، فى ص ٩٤ .) وذلك على التأكيد رباط قد بلغ الغاية من الافتعال ومن اللامعقولية ، ولكنى ما كنت قط لأجد القدرة على اختراعه ، لو لم يكن قد أنشىء من قبل فى خلال عمل الحلم . لا ، بل لكأن هذا الدافع القهرى إلى فرض الروابط لا يعرف لشىء حرمته : فها هو ذلك الاسم الموقر ، اسم بروكه (أنظر الجسر اللفظى فيما سبق) يستغل فى تذكيرى بالمعهد الذى قضيت به أسعد أيام حياتى ، طالباً خلت نفسه من كل حاجة سوى الدرس (« وهكذا أنت على صدر الحكمة ، سوف تجد فى كل يوم لذة »)[3] — بما يباين كل المباينة تلك الرغبات التى تعذبنى [فى الألمانية : پلاجن] وأنا نائم . وتنبثق أخيراً ذكرى معلم آخر أُكْبِرُهُ ، كان اسمه — فلا يشل[4] [فلايشس = لحم] — يجانس أيضاً اسم غذاء (مثل كنودل) ، ثم ذكرى حادثه فاجعة تدخل فيها قشور الطبقة الخارجية للجلد (الأم المضيفة) والاضطراب العقلى (الرواية) ودواء من أدوية العطارة [الترجمة

---

(١) لقد تجنبت عامداً التوسع فى صدد « پلاجيوستوم » ؛ إنه يذكرنى بمناسبة غير سارة جرت على الخزى أمام المعلم المذكور .

(٢) (Pélagie - Plagiat - Plagiostomen (Haifische) — Fischblase)

(٣) [بيتان من المشهد الرابع من الجزء الأول من فاوست : " فى مكتب فاوست " .]

(٤) [أنظر فيما يتصل ببروكه وفلا يشل بعض الحقائق التى سردناها عنهما وعن صلة فرويد بهما فى هامش [وضعناه فى صفحة ٤٨٠.]

الحرفية هى : من المطبخ اللاتينى] يسكن الجوع — وهو الكوكايين .

لقد كان يسعنى أن أتابع خيوط الفكر المتشابكة على هذا النحو ، وأن ألقى الضوء كاملا على هذا الجزء من الحلم الذى لا يزال ينقصنا تحليله . ولكنى لا أجد بدا من التخلى عن هذا العمل لما يقتضيه من تضحية شخصية فادحة . وإنما أكتفى بأن أقبض على خيط واحد من بين الخيوط التى تقودنا إلى أفكار الحلم الكامنة وراء هذا الخليط : إن الرجل الغريب ذا الوجه المستطيل واللحية المدببة ، والذى يمنعنى من ارتداء المعطف - يحمل ملامح تاجر فى سپالاتو اشترت منه زوجى كثيراً من الأقمشة التركية . وكان الرجل يدعى پوپوفيتش[1] — وهو اسم مريب ، عقب عليه من قبل أحد الكتاب الفكاهيين ، هو شتيتنهايم ، بملاحظة غامزة إذ قال : وذكر لى اسمه ثم ضغط يدى وقد احمر وجهه خجلا . ولكن هأنذا أرانى من جديد إزاء ذلك اللعب بالأسماء الذى رأيناه من قبل فى پيلاجى وكنودل وبروكه وفلايشل . وما من أحد يجادل فى أن مثل هذا اللعب ضرب من الخبث الطفلى . فإذا كنت أمعن فيه ، فذلك قصاص لنفسى ؛ فقد اتفق فى مناسبات لا تحصى أن كان اسمى أيضاً ضحية لأمثال هذه المحاولات السهلة فى الفكاهة[2] . وقد لاحظ جوته مدى حساسيتنا فيما يتصل بأسمائنا التى نحس أننا قد نمونا معها نمونا فى جلدنا ، وكانت تلك الملاحظة حين نظم هردر فى اسم جوته قوله :

« أنت يا سليل الآلهة أو الغوط أو الطين » —
« هكذا باتت صوركم الآلهية تراباً » [3]

إنى ألحظ أن هذا الاستطراد حول إساءة اللعب بالاسماء إنما قصد به إلى التمهيد لتلك الشكاة . ولكن لنقفن ههنا . — إن صفقة سپالاتو تذكرنى بأخرى فى كاتارو كانت

---

(١) [پوپو لفظ يطلق فى لغة الأطفال على المؤخر .]

(٢) [" فرويد " يعنى فى الألمانية السرور .]

(٣) "Der du von **Göttern** abstammst, von Gothen oder vom Kote"
"So seid ihr **Götterbilder** auch zu Staub."

[يلاحظ القارئ أن Götter فى الكلمتين المبرزتين لا تكاد تختلف فى النطق من اسم الشاعر الكبير جوته ، وهو ما يضيع عند الترجمة . ويقول ستراشى : إن السطر الأول قد نظمه هردر فى رسالة ظريفة بعث بها إلى جوته يسأله إعارته بعض الكتب ، وبقيته : أى جوته ، ابعث إلى بها ! وأما السطر الثانى فيلحق بالأول فى ذهن فرويد على سبيل الاستدعاء الحر ، وهو مستمد من مسرحية جوته المنظومة : " إيفيجينيا فى توريدا " ، تعرب به إيفيجينيا من ألمها حين ينبؤها پيلاد أى عدد من الأبطال ماتوا فى أثناء حصار طروادة .]

يدى فيها شديدة القبض فضاعت على فرصة الظفر بشيء جميل . (فوات الفرصة على صدر المرضع ، أنظرما سبق .) فبين الأفكار التى أوحاها الجوع إلى الحالم فكرة ذلك فحواها : إن من الواجب ألا يدع المرء شيئاً يفوته وأن يأخذ المرء كل ما استطاع أخذه وإن جر ذلك بعض الجور ، على المرء ألا يضيع فرصة ؛ فالحياة قصيرة والموت محتوم .

ولما كان هذا الدرس فى « اغنم من الحاضر لذاته »[1] يرسل على إطلاقه وكانت الشهوة لن تحجم عن الجور ، فقد حقت له خشية الرقابة وحق عليه أن يستتر بحلم . ومن ثمت كان الإعراب عن أفكار مضادة من كل نوع : من ذكرى الزمن الذى كان الحالم يقنع فيه بالغذاء الروحى وحده ، إلى أفكار تتصل بكل ضروب الموانع ، لا ، بل إلى تهديدات بألوان من العقاب الجنسى من أشد ما يكون تنفيراً .

(٢) وها هو ذا حلم ثان يتطلب تمهيداً طويلا بعض الطول :

كنت قد ركبت عربة إلى محطة الغرب [فى ڤيينا] لكى أبدأ منها رحلة الإجازة إلى آوسى . بيد أنى وصلت إلى الرصيف مبكراً وقطار إشل الذى يرحل قبل قطار آوسى لا يزال واقفاً . وهناك لمحت الكونت تون[2] فى طريقه مرة أخرى إلى مقابلة الإمبراطور فى إشل . جاء الكونت على رغم المطر فى عربة مكشوفة ، ثم مرق لا يلوى على شيء من مدخل قطر الضواحى ، منحيا بإشارة مقتضبة من يده لا يصحبها أى إيضاح حارس الباب الذى لم يعرفه وأراد أن يأخذ التذكرة منه . وكان الواجب على بحسب النظم أن أغادر الرصيف عائداً إلى حجرة الانتظار بعد أن رحل قطار إشل ، بيد أنى استطعت — بعد شيء من الجهد — أن أحصل على إذن بالبقاء . وأخذت أقطع الوقت أترقب من ذا الذى يأتى فيحاول أن يحصل بطريق المحسوبية على مقصورة محجوزة ، عاقداً العزم على أن أرفع الصوت عندئذ بالشكوى ؛ أى على المطالبة بحق مماثل . وفى هذه الأثناء كنت أدندن بشيء لم ألبث أن عرفت فيه ذلك اللحن من زواج فيجارو :

---

(١) [carpe diem كلمة ذائعة لهوراس ترجمتها الحرفية « اغنم يومك » ولها المعنى الذى لكلمة الخيام المعروفة .]

(٢) [رجل من رجال الدولة النمسويين ، ذو آراء رجعية ، عاش بين عامى ١٨٤٧ — ١٩١٦ . كان يريد قيام حكومة ذات استقلال ذاتى فى بوهيميا ، معارضا مطالب الوطنيين الألمانيين . ولى الوزارة عام ١٨٩٨ ، ١٨٩٩ . — وأما إشل Ischl فكانت المصيف الرسمى للبلاط ، بأعالى النمسا .]

إذا أراد سيدى الرقص ، الرقص ،
فما عليه سوى الطلب ،
وأنا كفيل بالعزف .
(وما أظن أن أحدا غيرى كان ليعرف ماذا أغنى .)

لقد كنت طيلة المساء فى مزاج ثائر شكس ، فتهكمت بالندل وبسائق العربة — دون أن أجرح شعورهما ، أو هذا على الأقل ما أرجوه . وتجول الآن برأسى خواطر جريئة ثورية من كل صنف ، خواطر تتفق وكلمات فيجارو وتتفق وذكرى مسرحية بومارشيه التى رأيتها تمثل فى الكوميدى فرانسيز : كلمة فيجارو عن كبار السادة الذين كبدوا أنفسهم عناء المجىء إلى الحياة ، حق السيادة الذى يريد الكونت ألماڤيڤا أن يستولى باسمه على سوزانا [حبيبة فيجارو] ، ثم النكات التى تجريها جرائد المعارضة الخبيثة عندنا حول اسم الكونت تون إذ تسميه الكونت نيختستون[1] . حقاً ، لست أحسده ؛ فهناك مقابلة عسيرة تنتظره مع الأمبراطور . وما الكونت « فاعل لا شىء » حقيقة إلا إياى : فأنا المسافر حرا طليقاً فى إجازة . وتتاو ذلك ألوان من المشاريع السارة أدبرها . ثم يقبل سيد كنت قد عرفته مراقباً موفداً من قبل الحكومة فى امتحان كلية الطب واستحق على نشاطه فى هذا المضمار أن يلقب بذلك اللقب اللطيف : « نَوَّام الحكومة » . إنه يطلب بماله من صفة رسمية نصف تذكرة بالدرجة الأولى . وأسمع أحد الموظفين يسأل موظفاً آخر : « بأى مقصورة نضع السيد صاحب نصف تذكرة الدرجة الأولى ؟ » ذلك أيضاً لون طريف من ألوان التفرقة ؛ فأنا قد دفعت درجتى الأولى كاملة . صحيح أننى حصلت على مقصورة كاملة ، ولكنها فى عربة لا دهليز لها ، بحث أظل طيلة الليل ولا مرافق فى متناولى . وأشتكى إلى الموظف ، فلاتثمر الشكاة شيئاً ، فأثأر لنفسى بأن أقترح عليه أن يصنع على الأقل ثقباً بأرض تلك المقصورة ؛ فقد يحتاج إليه المسافرون . ثم فى الساعة الثالثة والدقيقة الخامسة والأربعين من الصباح ، أستيقظ حقيقة — وبى حاجة ملحة إلى التبول — من الحلم الآتى :

حشد من الناس ، اجتماع طلبة . — يخطب فى الجمع كونت (اسمه تون أو تافه[2] .) يتحداه البعض أن يقول

---

(١) [أى الكونت " فاعل لا شىء " .Thun (تون) يعنى أيضاً " فعل " و Nichts يعنى "لا شىء" .]

(٢) [Taaffe (١٨٣٣ — ٩٥) سياسى ألمانى ، ولى رياسة الوزارة بين عامى ١٨٧٠ ، ١٨٧١ ثم من ١٨٧٩ إلى ١٨٩٣ . وكان مثل الكونت تون يحبذ منح الاستقلال الذاتى للأجزاء غير الألمانية من الإمبراطورية النمسوية .]

شيئاً عن الألمان ، فيجيب بحركة تنم عن الازدراء : إن زهرتهم المفضلة هي حشيشة السعال ، ثم يثبت فى عروته شيئا أشبه بورقة ممزقة من أوراق الشجر – أو على الأصح هيكلها الجعد . أهب ثائراً ، وأهب ثائراً[1] بيد أننى أعجب مع ذلك لانفعالى هذا . ثم فى وضوح أقل : المكان أشبه بقاعة الاحتفالات الكبرى فى الجامعة [Aula] . الأبواب محاصرة ولا بد من الفرار . أشق طريقى فى سلسلة من الغرف فرشت فرشاً جميلا ، كان جلياً أنها حجرات رسمية ، نجد أثاثها بلون متوسط بين البنى والبنفسجى . وأخيراً أبلغ بهوا جلست فيه خادم – امرأة عجوز بدينة . أتجنب التحدث إليها ، ولكن كان من الواضح أنها كانت تحسب أن لى حقاً فى المرور من هناك ؛ لأنها تسألنى : هل ترافقنى بالمصباح ؟ أفهمها أو أقول لها : إن عليها أن تلزم السلم ، وبهيأ إلى فى أثناء ذلك أننى شديد المهارة ، إذ نجحت فى أن أفلت فى النهاية من التفتيش وهكذا بلغت أسفل السلم ، فأرى أمامى طريقاً ضيقة شديدة الصعود ، أمضى فيها .

وفى غير وضوح كذلك : . . . كأنما مشكلتى الثانية هى الفرار من المدينة كما فررت قبل ذلك من المنزل . أركب عربة وأطلب من السائق أن يذهب بى إلى إحدى محطات السكة الحديدية . أقول السائق وقد أثار اعتراضاً ما كأن أكون كلفته ما لا يطيق : « إننى لا أستطيع أن أركب معك مسافة الخط الحديدى نفسه . » لكأنما كنت فى أثناء ذلك قد ركبت معه بالفعل جزءاً من المسافة التى يركبها المرء عادة بالقطار . المحطات محاصرة ، وأنا أفاضل بين الذهاب إلى كرمس أو إلى تسنايم . بيد أننى أفكر فى أن البلاط ربما كان مقيما هناك ؛ فأعقد العزم على الذهاب إلى جراتس أو إلى مكان يشبهها . أجلس الآن فى عربة قطار أشبه بعربة من عربات خط الضواحى ، وفى عروتى شىء غريب الشكل ، مضفر ، مستطيل ، علته أزهار بنفسج ذات لون بنفسجى بنى ، صنعت من قماش خشن ، ويعجب الناس لذلك كثيراً . وهنا ينقطع المشهد .

أرانى أمام المحطة مرة أخرى ، بيد أننى فى صحبة سيد هرم . أفكر فى خطة تمكننى من البقاء مجهول الشخصية ، ولكننى أجد الخطة قد تحققت بالفعل : كأنما كان التفكير والخبرة الفعلية شيئاً واحداً . يبدو ذلك السيد فاقد البصر أو على الأقل أعور ، أمد له مبولة زجاج الرجال (كان علينا أن نشتريها من المدينة أو أننا اشتريناها فعلا) أنا إذن ممرض ومن واجبى أن أمد له المبولة لأنه أعمى . لو أن المفتش رآنا بتلك الحال لتغاضى من غير شك عنا . هنا يظهر الميان فى صورة تامة الشكل وضع الرجل وعضوه المتبول . وفى هذا الموضع كان أنى استيقظت وبى حاجة إلى التبول .

إن هذا الحلم فى جملته يلوح تخييلا يحمل الحالم إلى ثورة عام ١٨٤٨ التى جدد ذاكرها يوبيل [الإمبراطور فرانسيس جوزيف] عام ١٨٩٨ ، كما جددتها ذكرى رحلة

---

(١) تكرار تسلل وأنا أحمل الحلم دون أن يكون لذلك سبب ظاهر سوى السهو . ولكننى تركته كما هو ؛ فسوف يبين التحليل أن له معناه .

قصيرة إلى ڤاشاو ، زرت فى أثنائها إمرسدورف[١] حيث مثوى زعيم حركات الطلبة فيشهوف الذى ربما كان فى بعض عناصر الحلم ما يومئ إليه . وتذهب بى المستدعيات بعد ذلك إلى إنجلترا ، إلى منزل أخى الذى دأب على أن يمازح زوجه بأن يردد على مسمعها تلك الكلمات المقتبسة من عنوان لإحدى قصائد اللورد تنيسون : « منذ خمسين عاماً مضت »[٢] فيصححها الأطفال قائلين : منذ خمسة عشر عاماً . بيد أن هذا التخييل الذى تفرع عن الخواطر التى أثارتها فى نفسى رؤية الكونت تون يخلو — مثل واجهة كنيسة إيطالية — من كل رابطة عضوية تجمع بينه وبين البناء الذى من خلفه ، وإن كان يختلف بعد ذلك من مثل تلك الواجهة فى أنه ملىء بالثغرات ، مشوش ، وفى أن بعض الأجزاء الداخلية قد برزت فى كثير من المواضع . فالموقف الأول من الحلم خليط من مشاهد متعددة أستطيع أن أفرق بينها . فالهيئة المتعاظمة التى اتخذها الكونت فى الحلم تنسخ مشهدا وقع فى المدرسة الثانوية ، كنت حينه فى الخامسة عشرة من عمرى : فقد كنا تآمرنا على معلم مكروه جاهل ، وكان الروح المحرك للمؤامرة رفيقاً تدل الدلائل على أنه — منذ ذلك الحين قد اتخذ من هنرى الثامن ملك إنجلترا مثالا يحتذى . وكانت قيادة الضربة القاضية قد وكلت إلىّ . وكانت العلامة المؤذنة بالثورة المكشوفة هى أن نفتتح نقاشا فى أهمية الدانوب بالنسبة إلى النمسا (أنظر ڤاشاو[٣]) . وكان فى زمرة المتآمرين الرفيق الوحيد الأرستوقراطى الأصل بيننا ، وكنا نسميه « الزرافة » لما كان بأطرافه من طول مفرط . وأذكر أنه حين أخذ يناقشه الحساب طاغية المدرسة — وأعنى به أستاذ اللغة الألمانية — قد وقف بمثل وقفة الكونت فى الحلم . وأما الزهرة المفضلة ووضعى فى العروة شيئا لا بد من أن يكون أيضاً زهرة (وهو ما يجعلنى أفكر فى سحالب كنت أحضرتها فى ذلك اليوم إلى صديقة لى ، وأفكر فوق ذلك فى وردة من ورد أريحا[٤]) فيذكرانى تذكيراً عجيباً

---

(١) ڤاشاو ذلك خطأ ، لكنه ليس هفوة هذه المرة ! فما علمت إلا فيما بعد أن إمرسدورف الواقعة فى ڤاشاو هى غير البلد المسمى أيضاً بهذا الاسم والذى أوى إليه الزعيم الثورى فيشهوف .

(٢) [بالإنجليزية فى الأصل . ويقول ستراشى : إنه لا يبدو أن لتنيسون قصيدة لها هذا المطلع .]

(٣) [ڤاشاو شعبة من وادى الدانوب تبعد قرابة الخمسين ميلا من ڤيينا .]

(٤) [نسبه إلى أريحا وهى أول بلد استولى عليه بنو إسرائيل بعد أن عبروا الأردن على حسب قصة ذائعة تجدها فى الإصحاح السادس من سفر يشوع . ولهذا النوع من الورد خاصة عجيبة هى أنه ينوى فى الجفاف ثم لا يلبث أن يبعث إلى الحياة إذا وجد فى الرطوبة . وهو — إذن — ورد " البعث " .]

بالمشهد الذى يصور فى إحدى روايات شكسبير التاريخية[١] ابتداء حروب الوردتين الحمراء والبيضاء — وورود ذكر هنرى الثامن قد مهد السبيل لهذه الذكرى . والمسافة بعد ذلك غير بعيدة من الورد إلى القرنفل الأحمر والأبيض . (وفى هذه الأثناء يتسرب إلى التحليل سطران من الشعر أولهما ألمانى وثانيهما أسبانى : ورد خزامى أو قرنفل ، كل الأزهار تذبل . — إيزابليتا لا تبك ، فالأزهار من بكائك تذوى[٢]) . والبيت الأسبانى يرجع بى إلى « فيجارو » والقرنفل الأبيض قد صار عندنا ، فى ڤيينا ، شارة أعداء الساميين بينما الأحمر شارة الاشتراكيين الديموقراطيين . ومن وراء ذلك تكمن ذكرى حادثة من حوادث استفزاز الساميين وقعت فى خلال رحلة بالسكة الحديدية فى ريف ساكس الجميل (أنظر آنجلو ساكسون) . وأما المشهد الثالث الذى شارك فى تكوين الموقف الأول من الحلم فيرجع إلى السنين الأولى من حياتى المدرسية : فقد جرت فى ندوة للطلبة الألمان مناقشة فى علاقة الفلسفة بالعلوم الطبيعية ، فاندفعت — وأنا لا أزال فتى غضاً ملأت رأسه النظريات المادية — أذود عن وجهة نظر متطرفة لا مهادنة فيها . وهنا نهض زميل يكبرنى سناً وعقلا ، أبدى منذ ذلك الحين قدرته على توجيه الرجال وتنظيم الجماعات وكان بعد يحمل اسما من المملكة الحيوانية[٣] ، نهض فألقمنا حجرا : فهو أيضاً قد رعى الخنازير فى صباه ثم رجع تائباً إلى بيت أبيه[٤] . وعندئذ هببت ثائراً (كما فى الحلم) وأجبته ، فى غلظة الخنزير[٥] : أنى وقد علمت أنه قد رعى الخنازير يوما ، لا أعود أدهش للهجة خطابه . (فى الحلم أدهش للموقف الوطنى الألمانى الذى اتخذته .) وهنا عم الصخب ، وارتفعت الأصوات من جوانب متعـــددة تطالبنى بأن أسحب

---

(١) [الجزء الثالث من هنرى السادس الفصل الأول ، المشهد الأول .]

(٢) [Isabelita, no llores, que se marchitan las flores.]

(٣) [المظنون أنه فيكتور آدلر (Adler = نسر)الزعيم الاشتراكى الديمقراطى(١٨٥٢ — ١٩١٨).وانظر الإشارة التى سترد قريبا إلى هذا الاسم .]

(٤) [إشارة إلى مثال معروف للسيد المسيح تجده فى إنجيل لوقا ، الإصحاح الخامس عشر ، ويضرب المرء يركب رأسه ثم يعود إلى عشيرته مستغفرا .]

(٥) [ترجمة حرفية لوصف جار : saugrab .]

كلمتى ، ولكننى ثبت على موقفى . وكان الزميل المهان أعقل من أن يرى فى تلك البادرة تحدياً موجها إليه ، فترك المسألة تهدأ من تلقاء نفسها .

وأما العناصر المتبقية من هذا الموقف الأول فى الحلم فتنبعث من طبقات أعمق . فما معنى أن يعلن الكونت عن « حشيشة السعال » ما أعلنه ؟ لا مناص لى هنا من أن أسال مستدعياتى ، فأجد : حشيشة السعال [والترجمة الحرفية لاسمها الألمانى هى : خس الحافر] — خس — سلطة — كلب السلطة[1] إننا نجد هنا ذخيرة من أسماء الشتائم : زَرَ — افه [« آفه » بالألمانية معناه القرد] ، خنزير ، كلب — وكان يسعنى لو قد عرجت على اسم آخر أن أتوصل إلى حمار ، وأن أجرح بذلك مدرساً جامعياً آخر . وأنا — عدا ذلك — أترجم حشيشة السعال إلى الفرنسية — ولست أدرى هل الترجمة صحيحة أم لا — بكلمة "pisse-en-lit"[2] .ولقد استنتجت ذلك من رواية زولا « چرمينال » ففيها نرى الأطفال يكلفون بجمع هذا النبات لأجل السلطة . والكلب ينطوى اسمه الفرنسى — chien — على جناس مع اللفظ الدال على الوظيفة العضوية الكبرى (Chier [تبرز] مثل pisser بالنسبة إلى الوظيفة الأصغر) . ولا يلبث أن تجتمع لنـــا القذارة فى كل حالاتها المادية [الصلبة والسائلة والغازية] : فإن تلك الرواية عينها « چرمينال » — وهى تدور إلى مدى كبير حول الثورة القادمة — قد اشتملت على وصف منافسة فريدة فى نوعها حول إنتاج مستخرج غازى اسمه فلاتوس[3] [نفس أو ريح] . ولا يسعنى الآن إلا أن ألحظ كيف مُهِّدت الطريق المؤدية إلى « فلاتوس » هذا منذ أمد طويل : من الأزهار عبر البيت الإسبانى إلى إيزابليتا ، إلى إيزابيلا وفرديناند ثم عبر هنرى الثامن إلى التاريخ

---

(١) ["Salathund" أى « كلب السلطة » تعبير نمسوى يقال لمن استيأس فى التشبث بشىء لا عن رغبة منه فيه بل لأن غيره قد رغب فيه . ومنشأ هذا التعبير قصة لاقت ذيوعا عظيما للكاتبة أوجينى شفارتسفالد عن كلب لم يكن يعطيه صاحبه سوى الخس وكان الكلب لا يأكله إلا راغما ، إلى أن جاء يوما كلب أدقع منه فقرا فأراد أن يزاحمه فى أوراق الخس هذه ، فنهض الكلب يطرد غريمه ويدافع عن خسه دفاع المستميت .]

(٢) ["Pissenlit" فى الحقيقة هو الهندب أو الخس البرى . تقطيع الكلمة على النحو الوارد فى النص يجعلها تحتمل هذا المعنى : بال فى السرير .]

(٣) وهو ما لم يرد فى الحقيقة فى Germinal بل فى La terre [الأرض] — وهى غلطة لم ألحظها إلا بعد أن فرغت من التحليل . — لاحظ الاشتراك فى الحروف بين "flatus" و "Huflattich" [حشيشة السعال] .

الإنجليزى وقت حملة الأرمادا [التى شنها الأسبان] على إنجلترا ، وهى الحملة التى صك الإنجليز بعدها « ميداليا » حفروا عليها تلك الكلمات : « ونفخ ، فتبعثروا »[١] ؛ لأن الريح قد بعثرت شمل الأسطول الإسبانى [٢]. ولكن تلك كلمات كنت قد فكرت نصف مازح فى أن أتخذها عنواناً لفصل عن « العلاج » ، لو قد بلغت يوماً إلى أن أكتب شرحاً مفصلا لنظريتى فى الهستريا وعلاجها .

وأما المشهد الثانى من الحلم فلست أستطيع الخوض فيه بمثل هذا التفصيل ، حاسباً للرقابة حسابها . فأنا أضع نفسى هنا فى مكان سيد رفيع المقام من رجال ذلك العهد الثورى ، كانت له أيضاً مغامرة مع نسر [آدلر] ، وقيل إنه كان يعانى فقدان القدرة على ضبط الأمعاء ... الخ .. وأعتقد أننى لا أكون محقاً فى تجاوز الرقابة هنا ، وإن يكن الجانب الأكبر من تلك القصة قد رواه لى مستشار بالبلاط (Aula, conciliarius aulicus)[٣]. وأما سلسلة الحجرات فمشتقة من عربة القطار الخاصة بصاحب السمو والتى كنت أفلحت فى أن ألقى نظرة عليها . ولكن الحجرات [Zimmer] — كما هو الحال غالباً فى الأحلام — تعنى أيضاً النساء [Frauenzimmer][٤] — و « نساء مشاعة » فى هذا المثال . وأما شخص الخادم فيومئ إلى سيدة عجوز بارعة النكتة إيماء أجزيها به سوءاً على حسن ترحيبها وعلى القصص العديدة الطيبة التى كانت تغدق بها على فى منزلها . — وأما الإشارة إلى المصباح فترجع إلى جريلپارتسر[٥] الذى دون

---

(١) [Flavit et dissipati sunt]

(٢) [١٩٢٥ :] أخذ على كاتب تطوع بتأريخ حياتى غير مرجو — هو الدكتور فريتس ڤيتلز أننى حذفت اسم « يهوه » من تلك الكلمات . [١٩٣٠ :] وإن المداليا الإنجليزية لتحمل اسم الرب بالحروف العبرية على سحابة فى الخلف ، بحيث يستطيع المرء أن يراها على أنها جزء من الرسم أو من تلك الكلمات على السواء .

(٣) ["Aula" هى الاسم الذى كان يطلق على قاعات الاحتفالات الكبرى بالجامعة (أنظر صدر المشهد الثانى من الحلم) ومن معانيها فى اللاتينية " بلاط الملك ". أما « مستشار البلاط » أو « مستشار ملكى » فترجمة حرفية للكلمة الألمانية "Hofrat"، وهو لقب كان يمنحه الإمبراطور لكل من امتاز بخدمة طويلة مشهودة فى وظائف الحكومة أو فى الحياة العامة ، دون أن تعنى أن لصاحبها أقل صلة بالبلاط .]

(٤) [ومعناه بالحرف " حجرة النساء " لفظ جار يطلق فى اللغة الألمانية — مع شىء من التحقير - على النساء .]

(٥) [من أكبر كتاب النمسا المسرحيين فى القرن الماضى (١٧٩١ — ١٨٧٢) . لا تزال مسرحياته تمثل إلى اليوم .]

obeikandi.com

حادثة ظريفة من نوع مماثل كانت قد وقعت له حقيقة ، ثم أدرجها بعد ذلك فى مأساته « هيرو وليياندر » [١] (أمواج البحر والحب — الأرمادا والعاصفة) .[٢]

ولست أجد كذلك بدا من أن أمسك عن التحليل المفصل للجزئين الباقيين من هذا الحلم[٣] . وأكتفى بأن ألتقط تلك العناصر التى تقودنا إلى مشهدى الطفولة اللذين ما أخذت فى مناقشة هذا الحلم على الإطلاق إلا من أجلهما . وسنحذر بحق أن هذا التكتم قد ألجأت إليه مادة جنسية ، ولكننا لا نحتاج إلى أن نقف عند هذا التعليل قانعين ؛ فكثيرة هى الأمور التى يصارح بها المرء نفسه وإن واراها عن غيره اضطرارا . ثم إن المسألة لا تتعلق ههنا بالأسباب التى تحملنى على أن أخفى الحل ، بل بدوافع الرقابة الباطنة التى أخفت المحتوى الصحيح للحلم عنى نفسى . وعلى ذلك لا أجد مناصاً من أن أقول : إن التحليل قد بين أن هذه الأجزاء الثلاثة [الأخيرة ، بعد الجزء الخاص باجتماع الطلبة والكونت الخطيب] إنما هى مباهاة سليطة ، دفقة من جنون باطل بالعظمة كبحت جماحه فى حياتى المستيقظة زمناً طويلا ، واقتحمت بعض شعابه محتوى الحلم الظاهر نفسه (هيئ إلىّ أننى كثير الدهاء) ، ثم هو يجعلنا من غير شك نفهم أحسن الفهم ذلك المزاج الفائر المتعاظم الذى كنت فيه فى المساء الذى سبق الحلم . وقد شملت المباهاة جميع الميادين ؛ فذكر [مدينة] جراتس — مثلا — كان يرجع إلى تلك الجملة العامية : « ما ثمن جراتس ؟ » — وهى الجملة التى يعرب بها المرء عن اغتباطه إذ يشعر بوفرة المال . وكل من يذكر وصف رابليه المنقطع النظير فى حياة جارجانتوا وابنه بانتاجرويل[٤] وأعمالهما

---

(١) [ليياندر فتى من أبيدوس أحبته هـ هيرو — وكانت كاهنة لڤينوس — أغرق نفسه فى الدردنيل .]

(٢) [١٩١ :] لقد حاول سيلبرر (١٩١٠) فى مقال هام أن يدلل من هذا الجزء من حلمى على أن عمل الحلم لا يملك تمثيل الأفكار الكامنة وحدها ، بل كذلك العمليات النفسية التى تقع فى خلال تكوينه (وهو ما يسميه " الظاهرة الوظيفية ") . [١٩١٤ :] بيد أننى أعتقد أنه يغفل بذلك تلك الحقيقة : وهى أن "العمليات النفسية التى تقع عند تكوين الحلم " إنما هى بالنسبة إلى مادة تشغل فكرى شأنها شأن غيرها . فمن الواضح أننى أفخر فى هذا الحلم المتباهى بأننى قد اكتشفت تلك العمليات .

(٣) [إلا أن فرويد يحلل الجزء الأول منهما (ركوب العربة إلى المحطة) ، فيما بعد ص ٤٣١ .]

(٤) [من وقائع جارجانتوا الذائعة واقعة سوف يشار إليها فى هذا الكتاب وهى أنه اعتلى كنيسة نوتردام بباريس وبال على أهلها " بولا عنيفا حتى أغرق منهم مائتين وستين ألفا وأربعة مائة وثمانية عشر رجلا عدا النساء والأطفال " . وله ولابنه وقائع متعددة فى هذا الباب وما يعدله .]

سوف يدرج تحت باب المفاخرة ما ألمحت إليه الفقرة الأولى من الحلم كذلك . ولكن ها هى ذى تلك المادة التى ينتسب إليها مشهدا الطفولة اللذين وعدت بهما : كنت قد اشتريت من أجل تلك الرحلة حقيبة جديدة ، ظهر لونها — وكان بنياً بنفسجياً — مرات متعددة فى الحلم (أزهار البنفسج ذات اللون البنى البنفسجى ، المصنوعة من قماش خشن ، بجانب شىء يسمى « مصيدة بنات[1] » ، ثم أثاث الحجرات الرسمية) . ونحن نعلم أن الأطفال يعتقدون أن كل جديد يجذب الأنظار . ولقد قص على هذا المشهد من مشاهد طفولتى الذى حلت روايته فى ذاكرتى محل ذكراه ، قيل : إننى وأنا فى الثانية من عمرى كنت لا أزال أبلل فراشى بين الحين والحين ، وكنت إذا قرعنى والدى على ذلك عزيته واعدا إياه بأن أبتاع له سريراً جميلا جديداً أحمر اللون من ن . — وهى أقرب مدينة لها بعض الحجم إلينا . ومن هنا جاءت فى الحلم تلك الجملة الاعتراضية فيما يتصل بالمبولة الزجاجية ؛ اشتريناها من المدينة أو كان علينا شراؤها — إذا وعد المرء فقد حق عليه الوفاء . (ونلاحظ التجاور بين المبولة الزجاجية — رمز مذكر — والحقيبة أو الصندوق — رمز مؤنث [أنظر ص ١٧٨] .) إن كل جنون العظمة عند الطفل متضمن فى وعدى هذا . ولقد عرفنا من قبل ونحن نفسر حلماً سابقاً مدى ما يكون لصعاب الطفل المتصلة بالتبول من خطر فى الحلم [أنظر ص ٢٢٠] . كما أن التحليل النفسى للعصابيين قد علمنا مدى الارتباط الوثيق بين بلل الفراش وبين تلك السمة من سمات الطبع التى هى الطموح[2] .

ثم جاء بعد ذلك — وأنا فى السابعة أو الثامنة من العمر — مشهد عائلى آخر ما زلت أذكره أبين الذكر : فقد تغاضيت يوماً عما ينهى عنه الاحتشام من إجابة بعض الحاجات فى غرفة الوالدين وفى محضرهم ، وكان أن ألقى والدى — وهو يقرعنى — بتلك الملاحظة : هذا الولد لن يصير شيئاً ما . ولا بد أن هذه كانت صدمة مروعة لطموحى ؛ فالإشارات إلى هذا المشهد لا تزال تترى فى أحلامى من غير انقطاع ، مصحوبة بتعديد ما حققته وأصبت فيه نجاحاً ، كأنما أريد أن أقول : « أترى ؟ لقد صرت مع ذلك شيئاً . » وهذا المشهد الطفلى يزودنا الآن بالمادة التى نسجت منها صورة الحلم الأخيرة بعد أن تبودلت فيها الأدوار بدافع من الانتقام بالطبع : فالرجل العجوز — من الواضح أنه والدى ؛

(١) [تعبير بمعنى عربيد أو قناص نساء .]

(٢) [الجملة الأخيرة قد أضيفت عام ١٩١٤ .]

وما يشير العور إلا إلى الجلوكوما التى أصابت عينا من عينيه[١] — هو الذى يتبول الآن أمامى ، شأنى أمامه من قبل . ثم إن فى الجلوكوما تذكيراً لوالدى بالكوكايين الذى أعانه على احتمال العملية التى أجريت له [أنظر ص ١٩٣] ، كأنما كنت بذلك قد حققت وعدى . وأنا بالإضافة إلى ذلك أهزأ به : فهو أعمى ، وأنا لذلك مضطر إلى أن أمد له الزجاجة ، ثم أسترسل فى تلميحات إلى مكتشفاتى فى نظرية الهستريا التى أنا فخور بها[٢] .

ولكن إذا كان مشهدا التبول المستمدان من طفولتى مرتبطين على أية حال بباب

---

(١) وتفسير آخر : إنه أعور مثل أودين ، أبى الآلهة [فى الأساطير الجرمانية] . — عزاء أودين [اسم رواية أسطورية كتبها Felix Dahn عام ١٨٨٠] . — تعزيتى إياه فى مشهد الطفولة بوعده بشراء سرير جديد .

(٢) وها هى ذى مادة تفسيرية أخرى : إن الإمساك بالزجاجة يذكرنى بقصة الفلاح الذى ذهب إلى النظاراتى فظل يجرب الزجاجة [أى العدسة] بعد الزجاجة دون أن يستطيع القراءة . — (مصيدة فلاحين [ويقال للمحتال] — مصيدة بنات ، فى الفقرة السابقة من الحلم .) — المعاملة التى يلقاها الأب على أيدى الفلاحين بعد أن ضعف عقله فى رواية زولا «الأرض» — المقاصة الفاجعة حين أخذ والدى فى أواخر أيام حياته يوسخ الفراش بدوره كالطفل ، ولهذا كان أنى ظهرت ممرضا . — " كان التفكير والخبرة الفعلية شيئا واحدا هنا ". يذكرنى ذلك بمسرحية أدبية ذات طابع ثورى عنيف كتبها أوسكار پانيتسا ، فيها يلقى الأب — وقد تشكل فى صورة رجل عجوز مشلول — شر المعاملة ، و" كن " و " يكون " كانتا هنا شيئا واحدا ، فكان على ملاك من ملائكته — أشبه بجانيميد [ساقى الآلهة فى الأساطير اليونانية] — أن يحول بينه وبين اللعن والسب وإلا تحققت دعواته على الفور . — وأما التفكير فى خطة فلوم موجه إلى والدى يرجع إلى فترة لاحقة فى نمو ملكتى النقدية . والحق أن كل محتوى الحلم بما فيه من تمرد ومن عيب فى الذات الملكية وانتقاص للسلطة العليا إنما يرجع إلى ثورة على والدى . فالأمير يدعى أبا الشعب ، والأب أقدم السلطات وأولها ، وهو بالنسبة إلى الطفل السلطة المفردة ، ومن هيمنته المطلقة خرجت فى خلال تاريخ الحضارة سائر السلطات (اللهم إلا بالقدر الذى يقتضى به « النظام الأموى» تقييد هذه القضية) . — وجملة الحلم : « كان التفكير والخبرة الفعلية شيئا واحدا » تتصل بتفسير الأعراض الهستيرية ، وبهذه أيضا تتصل المبولة الزجاجية . فلست أحتاج إلى أن أشرح لمن كان من أهل قيينا ما هو المبدأ الأساسى الذى تقوم عليه اللعبة المسماة "Gschnas" : إنها تتلخص فى أن تركب من مواد تافهة أو — وهو أفضل — مضحكة ، معدومة القيمة موضوعات تبدو نادرة غالية ، كأن تصنع درعا من أوعية المطبخ والقش وأرغفة الخبز المكورة وغيرها — وهى تسلية يشغف بها فنانونا فى سهراتهم البوهيمية . ولقد لاحظت أن الهستريين يجرون على تلك الوتيرة : فهم إلى جانب ما يقع لهم حقيقة يهيئون لأنفسهم — لا شعوريا — أحداثا متخيلة ، مروعة أو منحرفة ، يركبونها من أقل خبراتهم ضررا أو أكثرها ألفة . وأعراضهم ترتبط فى المرتبة الأولى بهذه التخييلات وليس بذكريات الأحداث الحقيقية ، سواء أكانت هذه أحداثا جدية أم كانت أحداثا خالية من الشأن . ولقد أعانى هذا الكشف على كثير من الصعوبات ، وجلب لى سرورا لا يعدله سرور . وأما الذى مكننى من الإلماع إلى هذا كله بوساطة هذا العنصر من الحلم ، " مبولة الرجال الزجاجية " ، فهو ما سمعته عن ليلة « الكشناس » الأخيرة من أن كأسا سامية من كئوس لوكريس بورجيا قد عرضت فيها ، وكان هيكلها وأهم أجزائها مكونا من مبولة زجاجية للرجال ، من قبل ما يستعمل فى المستشفيات .

الجنون بالعظمة أوثق الارتباط ، فقد أعان بعد ذلك على تنبيههما فى خلال رحلة آوسى ما اتفق من خلو مقصورتى من المرافق ومن أننى كنت أتوقع تلك الورطة ، مثلماً حدث بالفعل فى الصباح : فقد استيقظت إذ ذاك وأنا أشعر بحاجة عضوية . وأغلب ظنى أننا قد نميل هنا إلى أن نرى فى هذا الشعور العامل الذى أطلق الحلم فعلا . ولكننى أوثر وجهة نظر أخرى ، هى على التحقيق : أن الحاجة إلى التبول إنما بعثت عليها أفكار الحلم . فإنه لأمر غريب على كل الغرابة أن تزعجنى فى أثناء النوم حاجة جسمية من أى نوع كانت ، وبخاصة فى ذلك الوقت الذى استيقظت فيه — الثانية والخامسة والأربعون. ويبقى اعتراض آخر أدفعه بأن ألاحظ أننى لم أشعر قط فى رحلات أخرى تحقق لى فيها من أسباب الراحة قسط أوفر بالحاجة إلى التبول بعد الاستيقاظ مبكراً . وليس يضيرنى على أية حال أن أترك تلك المسألة من غير بت .

ولما كانت خبراتى فى تحليل الأحلام قد جذبت انتباهى إلى أنه حتى تلك الأحلام التى يبدو تفسيرها للوهلة الأولى أمراً مفروغاً منه لأننا اكتشفنا من غير عناء مصادرها والرغبات الحافزة إليها — تخرج منها هى الأخرى خيوط تمتد إلى أبعد عهود الطفولة ، فإنى لم أجد مفرا من أن أسأل : هل هذه الخاصة أيضاً شرط جوهرى من شروط الحلم ؟ ومعنى ذلك — إذا وضعنا القضية فى صورة كلية — هو أن كل حلم يرتبط فى محتواه الظاهر بخبرات حديثة العهد ، لكنه — فى محتواه الكامن — مرتبط بأشد الخبرات قدما ، تلك الخبرات التى تمكنت من أن أبين بالفعل فى تحليل الهستريا أنها قد ظلت على حداثتها بالمعنى الصحيح للكلمة حتى الزمن الحاضر . بيد أن هذا الظن ما زال يبدو بحق صعب البرهان غاية الصعوبة ، وسوف أعود فى مناسبة أخرى (الفصل السابع [القسم ب ، ص٥٤٣—٥٤٤]) إلى مناقشة النصيب المحتمل الذى تقوم به خبرات الطفولة المبكرة فى تكوين الحلم.

فإذا رجعنا إلى الخصائص الثلاث التى تتميز بها الذاكرة فى الحلم والتى أحصيناها فى مطلع هذا الفصل ، وجدنا أن الواحدة — تفضيل ما هو ثانوى فى محتوى الحلم — قد لقيت حلا مرضيا بإرجاعها إلى تشويه الحلم . فأما الاثنتان الأخريان — تغليب الحديث والطفلى — فقد تأيد لنا وجودهما ، بيد أننا لم نتمكن من استنباطهما من الدوافع المؤدية إلى فعل الحلم . فلا ننسى هاتين الخاصتين اللتين يبقى علينا تعليلهما أو تقديرها ؛ فهما — لا محالة — واجدتان مكانهما فى موضع آخر : إما فى سيكولوجية حالة النوم ، أو

عند البحث فى تركيب الجهاز النفسى — وهو البحث الذى سوف نشرع فيه حين نكون تعلمنا أن تفسير الحلم أشبه بنافذة نستطيع أن نلقى منها نظرة إلى باطن هذا الجهاز [أنظر الفصل السابع] .

غير أن هناك نتيجة أخرى تلزم من تحليلات الأحلام السابقة ننبه إليها دون إمهال ، وهى : أن الحلم كثيراً ما يبدو الحلم حاصلا على أكثر من معنى واحد . فهو كما يتبين من أمثلتنا — قد لا يقتصر على أن يحقق رغبات متعددة جنباً إلى جنب بل قد يتضمن فوق ذلك جملة من المعانى أو تحقيقات الرغبات يفترش كل منها غيره حتى نعثر فى القاع على تحقيق رغبة ترجع إلى أقصى عهود الطفولة . وهنا نسأل من جديد : أليس الأصدق هو أن نضع « دائماً » بدل « من الشائع » فى هذه القضية ؟ (١) .

ج
المصادر الجسمية للحلم .

لو أننا أردنا أن نبعث أحد المثقفين غير المختصين على الاهتمام بمشكلات الحلم ، فسألناه من أجل هذا الغرض أى المصادر تصدر عنها الأحلام فى زعمه ، لوجدنا فى معظم الأحيان أن من نسأله يظن أنه واثق كل الثقة من امتلاكه هذا الجزء من الجواب عن السؤال : فهو يفكر لفوره فى الأثر الذى يحدثه فى تكوين الحلم هضم معتل أو عسير (« الأحلام تأتى من المعدة » [أنظر ص ٦٠]) أو وضع يعرض للجسم أو حدث صغير يقع أثناء النوم ، وهو لا يظهر أبدا ولو ريبة فى أننا إذا حسبنا لهذه العوامل جمعاء حسابها بقى بعدها شىء يقتضى مع ذلك إيضاحاً .

فأما النصيب الذى تعزوه المؤلفات العلمية إلى المصادر الجسمية للتنبيه فى تكوين الحلم ، فذلك ما أطلنا فى تبيانه فى الفصل الذى قدمنا به (ص ٦٠) بحيث لا نحتاج

---

(١) إن تراكم معانى الحلم بعضها فوق بعض طبقات مشكلة من أدق مشكلات تفسير الحلم وإن تكن كذلك من أمتعها . وكل من نسى هذه الإمكانية سهل عليه أن يضل الصواب وأن ينقاد إلى قضايا لا يمكن الأخذ بها فى ماهية الحلم . ومع هذا فالأبحاث الموضوعة فى هذا الباب لا تزال قليلة غاية القلة . فما نجد حتى الساعة من دراسة عميقة سوى تلك التى خصصها أوتو رانك (١٩١٤ أ) للتراكم الرمزى المنتظم إلى حد كبير فى الأحلام الناشئة عن منبه بول .

هنا إلى غير التذكير بنتائج ذلك البحث : لقد سمعنا أن هناك ثلاثة أنواع من المصادر الجسمية للتنبيه تنبغى التفرقة بينها : المنبهات الحسية الموضوعية الناشئة عن موضوعات خارجية ، الحالات التهييجية الباطنة لأعضاء الحواس — وهذه ليس لها إلا أساس ذاتى — ثم المنبهات الجسمانية المنبعثة من باطن الجسم . ولاحظنا بالإضافة إلى ذلك نزوع المؤلفين إلى أن يهونوا من قيمة كل مصدر نفسى للحلم بجانب هذه المنبهات الجسمية ، أو إلى أن يستبعدوه جملة (ص ٨٧) . فلما فحصنا ما يدعى لهذه المنبهات الجسمية من شأن ، انتهينا إلى أن قيمة المنبهات الموضوعية لأعضاء الحس — وبعضها عارض فى أثناء النوم وبعضها يستحيل تجنيب النفس إياه ولو كانت نائمة — أمر تثبته الملاحظات المتعددة ويؤيده التجريب (ص ٦٢) ، وأما نصيب التهييجات الحسية الذاتية فيثبته — فيما يبدو — رجوع الصور الحسية قبل النومية فى الأحلام (ص ٦٨) ، وأخيراً فإن ما يقال على إطلاقه من رجوع صور الحلم وأفكاره إلى منبهات جسمية باطنية أمر يستحيل قطعاً إثباته فى كل مداه ، ولكنه قد يجد مع ذلك سنداً فيما هو معروف من تأثير حالات التهييج الذى يصيب أعضاء الهضم والتبول والإنسال فى أحلامنا [ص ٧٤] .

وهكذا يكون « التنبيه العصبى » و « التنبيه الجسمانى » هما المصدران الجسميان للحلم ، أى — فى رأى كثير من الكتاب مصدراه الوحيدان على الإطلاق .

غير أننا قد سمعنا أيضاً أصواتاً تعرب عن عدد من الشكوك ، وإن كان من الحق أن هذه الشكوك لا تبدو موجهة إلى صحة نظرية التنبيه الجسمى ، بل إلى كفايتها .

فمهما كان من ثقة المنتصرين لهذه النظرية من ناحية أسسها الواقعية — وعلى الأخص فيما يتعلق بالمنبهات العصبية الخارجية العارضة التى يسهل قفوها فى محتوى الحلم دون ما عناء — فما غاب عن أحدهم أن فى الأحلام من ثراء المحتوى الفكرى ما يستحيل تفريعه من المنبهات العصبية الخارجية وحدها . ولقد مكثت الآنسة مارى هوايتون كالكنيز ستة أسابيع تبحث من هذه الوجهة أحلامها وأحلام شخص آخر ، فلم تجد على الترتيب سوى ١٣,٢ و ٦,٧ من المائة حلماً أمكن فيها الاهتداء إلى عنصر الإدراك الحسى الخارجى ، ولم يكن فى المجموعة كلها سوى حلمين أمكن إرجاعهما إلى إحساسات عضوية . فالإحصاء يؤيد هنا ما قد خمنته من نظرة عاجلة إلى خبراتى الخاصة .

وكثيراً ما يرتأى البعض أن نفصل أحلام « التنبيه العصبى » — باعتبارها نوعاً سافلا

من الأحلام تمت دراسته دراسة وافية — من سائر أشكال الحلم . ومثال ذلك شپيتا إذ يقسم الأحلام قسمين : أحلام تنبيه عصبي وأحلام تداع . بيد أن من الواضح أن ذلك سوف يظل حلا غير مرض ، ما دمنا لا نفلح فى تبيان الرباط بين المصادر الجسمية للحلم وبين محتواه الفكرى .

وهكذا ينهض إلى جانب الاعتراض الأول : أن المصادر الخارجية للتنبيه ليست كثيرة الوقوع الكثرة الكافية — ينهض اعتراض ثان : أن تعليل الأحلام التى تأتى بوساطة مثل هذه المصادر ليس بالتعليل الكافى . ذلك لأن أنصار هذه النظرية مدينون لنا بإيضاحين : الأول : لم كان المنبه الخارجى لا يُعْرَف فى الحلم على طبيعته الحقة ، بل يعرف دائماً معرفة خاطئة (أنظر أحلام جرس المنبه فى ص٦٥) ؟ والثانى هو : لم كانت استجابة النفس النائمة لهذا المنبه الذى يعرف معرفة خاطئة تتنوع كل هذا التنوع الذى لا ضابط له ؟ لقد سمعنا شتر ومپل يقول فى الإجابة عن هذا السؤال : إن النفس وقد انصرفت فى أثناء النوم عن العالم الخارجى لم تعد قادرة على أن تفسر المنبهات الموضوعية الحسية تفسيراً صحيحاً ، بل هى مضطرة إلى أن تشيد أوهاماً حسية على ما يصل إليها من تنبيه مبهم فى كثير من نواحيه ، أو بعبارته هو (١٨٧٧ ، ١٠٨) :

« إنه ما أن يستثار فى النفس النائمة — نتيجة لمنبه عصبى خارجى أو باطنى — إحساس أو مركب من الإحساسات أو انفعال أو أية عملية نفسية بوجه عام ، وما أن تدرك العملية المستثارة على هذا النحو بوساطة النفس — حتى تستدعى العملية صوراً حسية تستمد من نطاق خبرات اليقظة المتخلفة فى النفس ، أى مدركات سابقة ، تجىء إما مجردة من قيمتها النفسية التابعة لها وإما مصحوبة بها . وهكذا تحيط العملية نفسها بعدد يزيد أو ينقص من أمثال تلك الصور التى من طريقها يكتسب الانطباع الناشىء عن المنبه العصبى قيمته النفسية . ونحن نقول هنا (مثلما اعتدنا أن نفعل فيما يتصل بسلوك اليقظة) إن النفس تفسر الانطباعات الناجمة عن المنبه العصبى . ونتيجة هذا التفسير هى ما نسميه حلم تنبيه عصبى ، أى حلما تحتمت مقوماته بوساطة منبه عصبى ، أحدث أثره النفسى فى النفس النائمة وفقا لقوانين الاستحضار . »

و يطابق تلك النظرية مطابقة جوهرية قول ڤونت : إن أفكار الحلم يصدر الجزء الأعظم منها على الأقل عن منبهات حسية ومنبهات الحساسية العامة بالجسم بنوع خاص ،

ولهذا كان معظمها أوهاماً تخيلية ولم تكن إلا إلى حد ضئيل فى الراجح ذكريات خالصة اشتدت إلى درجة الهلاوس . ولقد عثر شترومپل على تشبيه موفق للعلاقة التى تخلص من هذه النظرية بين محتوى الحلم ومنبهاته ، وذلك إذ يقول : « إن الأمر يبدو كأن رجلا لا يملك أقل معرفة بالموسيقا قد أجال أصابعه العشرة على مفاتيح المعزف . » وهكذا لا يكون الحلم بحسب تلك النظرة ظاهرة نفسية تقوم على دوافع نفسية ، بل نتيجة لتنبيه فيزيولوجى أعربت عنه أعراض نفسية ؛ لأن الجهاز الذى أصابه المنبه لا يملك أية صورة أخرى من صور التعبير . وعلى مسلمة مماثلة يقوم — مثلا — التشبيه الذائع الذى أراد ماينيرت أن يعلل الأفكار القهرية بوساطته : ميناء الساعة تبرز عليها بعض الأرقام لأنها قد زيدت تحديباً .

غير أنه مهما كان التحبيذ الذى صارت تنعم به نظرية التنبيه الجسمانى ومهما بدا من جذبها ، فمن الهين كذلك أن نبين موطن الضعف فيها. فكل منبه من منبهات الحلم الجسمية التى تحث الجهاز النفسى النائم على تفسيرها بتشييد الأوهام يستطيع أن يطلق عدداً لا يحصى من أمثال هذه المحاولات التفسيرية ، وأن ينتهى بذلك إلى أن تمثله فى الحلم أفكار لا حصر لها[1]. ولكن نظرية شترومپل وڤونت تعجز عن أن ترينا أى دافع يضبط العلاقة بين المنبه الخارجى وبين فكرة الحلم المختارة لتفسيره ، أى عن أن تعلل « هذا الاختيار العجيب » الذى كثيراً ما تبديه المنبهات « فى خلال نشاطها المنتج » (ليپس ، ١٨٨٣ ، ص ١٧٠) . ثم هناك اعتراض آخر يمتد إلى المسلمة التى تنبنى عليها نظرية الوهم بأسرها ، وهى المسلمة القائلة بأن النفس حين تنام تفقد القدرة على تعرف الطبيعة الحقيقية للمنبهات الموضوعية الحسية : فقد بين الفيزيولوجى بورداخ منذ زمن طويل أن النفس تملك فى النوم كذلك قدرة تامة على أن تفسر ما يصل إليها من الانطباعات الحسية تفسيراً صحيحاً ، وعلى أن تستجيب بما يتفق وهذا التفسير الصحيح ، وذلك حين ذكر بأن فى وسع الإنسان أن يستثنى من الإهمال الذى يشمل الانطباعات الحسية عند النوم تلك الانطباعات التى تبدو له ذات بال (المرضع والطفل) ، وأن استيقاظ المرء على صوت اسمه أوثق كثيراً من استيقاظه على انطباع سمعى آخر لا يهمه فى شىء وكل هذا يتضمن

---

(١) لقد أخرج مورلى فولد مجلدين يحتويان على وصف دقيق مفصل لطائفة من الأحلام أحدثها بالتجريب ، مجلدين أشير على كل قارئ بدراساتهما ؛ حتى يقتنع بضآلة الضوء الذى تلقيه الشروط التجريبية الموصوفة فى هذين المجلدين على محتوى الأحلام الجزئية ، ثم بقلة غناء أمثال هذه التجارب عامة فى فهم مشاكل الحلم .

من غير شك أن النفس تفرق فى النوم كذلك بين الإحساسات (الفصل الأول ص٨٨) . ويخلص بورداخ من هذه الملاحظات إلى أن ما ينبغى افتراضه فى خلال حالة النوم ليس العجز عن تفسير المنبهات تفسيراً صحيحاً ، بل نقص الاهتمام بها . وهذه الحجج التى استخدمها بورداخ عام ١٨٣٠ تعود هى هى عام ١٨٨٣ عند ليپس فى نقده لنظرية التنبيه الجسمانى . وهكذا تبدو النفس مثلها مثل الحالم الذى تحكى عنه الحكاية ؛ فقد سأله سائل : « هل أنت نائم ؟ » فأجابه : « كلا » ، فلما أثنى السائل : « إذن أقرضنى عشرة ريالات » تعلل قائلا : « إننى نائم » .

ومن الممكن أن نثبت عدم كفاية نظرية التنبيه الجسمى بطرق أخرى . فالملاحظة تظهر أن المنبهات الخارجية لا تدفعنى إلى الحلم دفعاً وإن كانت هذه المنبهات تظهر فى الحلم بمجرد ما أحلم وإذا ما حلمت . ودعنا نفترض أن منبهاً من المنبهات ، بضغط أو بلمس ، قد عرض لى فى أثناء النوم : إن فى متناولى أن أستجيب له باستجابات مختلفة : فأنا أستطيع أن أغض الطرف عنه لكى أكتشف حين أستيقظ أن ساقاً من ساقى قد تعرت أو أن ساعداً قد ضغط — وفى علم الأمراض شواهد موفورة على أن منبهات حسية أو حركية شديدة التهييج ، مختلفة النوع قد تلبث دون أن تحدث أثراً فى خلال النوم . ثم أنا قد أستشعر هذا الإحساس وأنا نائم ، أستشعره « من خلال » النوم ، كما نقول ، (وتلك هى القاعدة فى حالة المنبهات المؤلمة) ولكن دون أن أنسج من الألم حلماً . وفى استطاعتى — ثالثاً — أن أستجيب لهذا المنبه بالاستيقاظ لكى أتخلص منه[1] . وأما أن يسوقنى المنبه العصبى إلى الحلم — فإن هذا إلا احتمال رابع ، يقع ، ولكن الاحتمالات الأخرى تقع أيضاً بمثل كثرته على الأقل . وما كان ذلك ليكون لولا أن الدافع إلى الحلم يكمن خارج المصادر الجسمية للحلم .

وقدر بعض الكتاب — وأعنى به شرنر والفيلسوف فولكلت الذى تابعه — قدروا شأن تلك الثغرات التى عينت عليها الآن فى تعليل الحلم بوساطة المنبهات الجسمية تقديراً صائباً ، فحاولوا أن يعرفوا بمزيد من الدقة ما هى أوجه النشاط النفسى التى تؤدى

(١) أنظر مقالة لانداور عن السلوك فى أثناء النوم (١٩١٨) . وإن فى استطاعة كل منا أن يلاحظ أناسا نائمين وهم يقومون بأفعال ذات دلالة واضحة . فالإنسان لا يرتد عند النوم إلى البله المطلق ، إنه — على العكس — يظل قادرا على الإتيان بأفعال منطقية متعمدة .

إلى نشوء صور الحلم المتقلبة من المنبهات الجسمية ، أى أن يعودوا بماهية الحلم فيقيموها من جديد فى النفس وفى نشاطها . فشرنر لم يكفه أن يترك لنا وصفا يزخر بالإحساس الشاعرى ويفيض حياة للخصائص النفسية المتجلية فى تكوين الحلم ، بل هو قد اعتقد فوق ذلك أنه اكتشف المبدأ الذى تسلك النفس بمقتضاه حيال المنبهات التى تعرض لها ، وهذا المبدأ هو : إن عمل الحلم — وقد أطلقت المخيلة فيه من قيود النهار — ينزع إلى تصوير العضو الذى ينبعث منه المنبه وكذلك طبيعة هذا المنبه تصويراً رمزيا . وهكذا يخرج لنا ما يشبه أن يكون كتاباً من كتب الأحلام ، مرشداً إلى تفسيرها ، به يتسنى لنا أن نستدل من صور الحلم على أحاسيس الجسم وحالة الأعضاء وطبيعة المنبهات . «فصورة القط تعرب عن مزاج مستاء غضوب ، بينما تعرب صورة الخبز الأملس الفاتح اللون عن عرى الجسم . والجسم الإنسانى فى مجموعه تصوره مخيلة الحلم فى صورة منزل وتصور كل عضو منه بجزء من أجزاء المنزل . وفى « الأحلام ذات المنبه السنى » يقوم بهو مرتفع السقف مقوسه مقام الفاه ، ويقوم سلم مقام الطريق النازل من الحلق إلى البلعوم . وأما « أحلام الصداع » ففيها يصور أعلى الرأس سقف غطته عناكب شبيهة بالضفادع السامة ، تبعث أشكالها على الغثيان »(فولكلت ١٨٧٥ ، ٣٩).« وينوع الحلم فيختار من هذه الرموز العدد الكبير للدلالة به على ذات العضو ؛ فالرئتان وهما تتنفسان قد تجدان رمزهما فى موقد استعر لهبه وصار له حفيف ، بينما يجده القلب فى صناديق أو سلال خاوية ، وتجده الكلية فى موضوعات مستطيلة تشبه الأكياس أو مجوفة وحسب بوجه عام . والمهم بنوع خاص هو أن العضو الذى أثار الحلم — أو وظيفة هذا العضو — كثيراً ما يتكشف فى ختام الحلم صراحة ، ويتكشف فى معظم الأحيان فى جسم الحالم نفسه ، وهكذا ينتهى عادة الحلم الناجم عن منبه سنى بأن يرى الحالم نفسه وهو يخلع سنا من فيه » (ص ٣٥) . ولا يستطيع المرء أن يقول : إن هذه النظرية قد لاقت من المؤلفين ترحيباً كثيراً . فالغرابة أظهر ما فيها ، حتى أن الكتاب ترددوا فى أن يسلموا لها ولو بهذا القسط من الوجاهة الذى نرى أنه حق لها . فهى تؤدى — كما نرى — إلى أن يبعث من جديد تفسير الأحلام بوساطة الرموز — وهو المنهج الذى اتبعه القدماء — سوى أن النطاق الذى تؤخذ منه التفسيرات قد حد بحدود الجسم الإنسانى نفسه . ثم إن خلو نظرية شرنر من كل نهج فى التفسير نستطيع تعقله بأسلوب علمى قد ضيق من غير شك إمكان تطبيقها تطبيقاً عظيما . وأما الاسترسال مع

الهوى فى تفسير الحلم فلا يبدو أن تلك النظرية تمنعه بحال من الأحوال ، وبخاصة أن من الجائز — هنا أيضاً — أن يظهر المنبه الواحد فى محتوى الحلم بصور شتى ، وهكذا عجز أيضاً تلميذ شرنر ، فولكلت ، عن أن يؤيد ظهور الجسم فى صورة المنزل . واعتراض آخر لا بد منه ، وأعنى به أن النفس تودع مرة أخرى القدرة على الحلم وكأنها أودعت شيئاً لا نفع منه ولا غاية له ؛ فالنفس تقنع فى تلك النظرية التى نحن بصددها بأن تحيك التخييلات حول المنبهات التى تشغلها ، دون أقل إشارة إلى وظيفة تستهدف التخلص من تلك المنبهات .

بيد أن هناك اعتراضاً آخر ينال نيلا بالغاً من نظرية شرنر فى أن الحلم يعبر عن المنبهات الجسمية تعبيراً رمزياً : فهذه المنبهات قائمة فى كل وقت ، ومن الأمور المتفق عليها أن النفس أشد إحساساً بها فى النوم منها فى يقظتها ؛ وعلى ذلك كنا لا نفهم لم لا تحلم النفس طيلة الليل كله من غير انقطاع ، بل لم لا تحلم فى كل ليلة بجميع الأعضاء . لقد نحاول تجنب هذا الاعتراض ، فنقول : إنه لكى يستثار نشاط الحلم فلا بد من أن تصدر عن العين والأذن والأسنان والأحشاء وغيرها من الأعضاء تهييجات عدا المألوفة . وعندئذ نواجه صعوبة أخرى ، ألا وهى أن نثبت وقوع هذا الاشتداد فى التنبيه — وهو ما لا يتسنى إلا فى عدد قليل من الحالات . فلو أن أحلام الطيران كانت رمزاً للرئتين حين تعلوان وحين تهبطان ، لكان الواجب — كما لاحظه شتر وميل — أحد أمرين : فإما أن يكون لهذه الأحلام من كثرة الوقوع ما يزيد عن المألوف زيادة كبرى ، وإما نثبت أن النشاط التنفسى قد اشتد فى أثنائها . وهناك بعد احتمال ثالث هو أرجح الاحتمالات جميعاً ، وأعنى به أن دوافع خاصة قد تعمل عملها فى هذه اللحظة أو تلك فتجذب الانتباه إلى الإحساسات الأحشائية القائمة فى كل وقت ، ولكن ذلك احتمال يحملنا إلى ما وراء نظرية شرنر .

إن القيمة التى لأفكار شرنر وفولكلت تقوم فى كونها تجذب الانتباه إلى عدد من الخصائص التى يتميز بها محتوى الحلم — وهى خصائص تتطلب تعليلا وتبدو تبشر باكتشافات جديدة . فمن الحق كل الحق أن الأحلام تحمل فى طياتها رموزاً ترمز لأعضاء الجسم ووظائفه : أن الماء فى الحلم يشير كثيراً إلى منبه بولى ، وأن أعضاء التناسل عند الذكر قد تصور بعصا مثبتة تثبيتا عمودياً أو بعمود أو بما أشبه . والأحلام التى يزدحم

فيها الحقل البصرى بالحركة وبالألوان الزاهية — على خلاف ما يسود بعض الأحلام الأخرى من قتمة — هذه الأحلام لا نكاد نستطيع تفسيرها بغير كونها « أحلاماً ذات منبه بصرى » ، ولا نحن نستطيع أن ننازع فى دخل الأوهام الحسية فى الأحلام التى تحوى ضوضاء ولغطا . فحلم كالذى يرويه شرنر عن فريقين من الصبية الحسان الشقر اصطفا على جسر فى صفين متقابلين ، أخذ كل منهما يهجم على الآخر ثم يعود إلى موضعه ، إلى أن يرى الحالم نفسه فى النهاية وقد جلس على جسر وهو يخلع سنا ، أو حلم كالذى يرويه فولكلت ، كان لصفين من الأدراج شأن فيه وانتهى مرة أخرى بسن يخلع — أحلام كهذه يورد منها هذان المؤلفان العدد الوفير لا تسمح لنا بأن ننبذ نظرية شرنر كما لو كانت اختراعاً لا طائل منه دون أن نبحث لبها الطيب . ومهمتنا إذن هى أن نجد تعليلا من نوع آخر للتعبير الرمزى المفترض عما يقال إنه منبه سنى .

لقد امتنعت طيلة هذا الوقت الذى شغلنا فى أثنائه بنظرية المصادر الجسمية للحلم عن استخدام الحجة التى تلزم من تحليلاتنا للأحلام . فلو قد تسنى لنا بطريقة لم يطبقها سائر المؤلفين على المواد المتجمعة عندهم عن الأحلام أن نثبت أن للحلم قيمته الخاصة من حيث هو فعل نفسى ، وأن الدافع إلى تكوينه رغبة ، وأن خبرة اليوم السابق تمده بأقرب مادة يبنى منها محتواه ، فإن كل نظرية أخرى فى الحلم تغفل طريقة فى البحث تلك أهميتها وتظهر الحلم من ثمت فى صورة استجابة نفسية ، معدومة القيمة ، معماة ، إزاء بعض المنبهات الجسمية — هى نظرية مقضى عليها من غير حاجة إلى نقد خاص . هذا ، وإلا وجب أن يكون ثمت نوعان من الأحلام مختلفان أكبر الاختلاف ، مر أحدهما بى وحدى ومر الآخر بالبحثة السابقين وحدهم — وهو أمر بعيد كل البعد عن الاحتمال . والذى يبقى علينا — إذن — إنما هو أن نجد فى نطاق نظريتنا عن الحلم مكاناً للوقائع التى قامت عليها النظرية السائرة ، نظرية التنبيه الجسمى للأحلام .

لقد خطونا بالفعل الخطوة الأولى فى هذا الاتجاه حين سقنا تلك القضية ، وهى : أن الحلم يعمل مدفوعاً إلى أن يصوغ فى وحدة كل حوافز الحلم الناشطة فى وقت واحد (ص٢٠٠) . وكنا رأينا أنه إذا تخلفت من اليوم السابق خبرتان أو أكثر من الخبرات القادرة على أن تستثير انطباعاً فإن الرغبات المتفرعة عن هذه الخبرات تدمج فى حلم واحد ، ورأينا كذلك أن الانطباع ذا القيمة النفسية يدرج فى مادة الحلم إلى جانب خبرات اليوم

السابق التافهة ، بشرط أن يتسنى إيجاد أفكار تصل ما بينهما . وهكذا يبدو الحلم استجابة لكل ما يجتمع حضوره فى النفس حضوراً ناشطاً . فمادة الحلم — بقدر تحليلنا إياها حتى الآن — قد رأينا أنها مجموعة من البقايا النفسية والآثار الذكروية ، اضطررنا (لما بدا من إيثار المادة الحديثة والطفلية) إلى أن ننسب إليها صفة نفسية تركناها حتى الآن من غير تحديد ، هى صفة الحضور الناشط . وعلى ذلك كنا لا نصادف كبير حيرة فى أن نتنبأ بما يقع إذا ما جاءت مادة جديدة — هى الإحساسات — فانضافت فى خلال النوم إلى هاته الذكريات الحاضرة حضوراً ناشطا : إن هذه التهييجات الحسية سوف تكتسب هى الأخرى أهمية بالنسبة إلى تكوين الحلم لكونها حاضرة حضوراً ناشطاً ، وهى سوف توحد مع ما عداها من المواد النفسية ذات الحضور الناشط من أجل تزويد الحلم بالمادة التى تلزم تكوينه . وبعبارة أخرى : إن المنبهات التى تقع فى خلال النوم سوف تصاغ بحيث يخرج منها تحقيق رغبة تتكون سائر مقوماته من بقايا النهار النفسية التى نعرف أمرها . ولكن هذا التوحيد أو الإدماج لا يحدث ضرورة ، فقد رأينا أن المنبهات الجسمية التى تقع فى أثناء النوم يمكن التصرف إزاءها بأكثر من طريقة . فإن حدث ، لم يكن ذلك إلا لأن الوصول إلى مادة تستطيع أن تمثل كلا مصدرى الحلم — الجسمى والنفسى — قد تيسر .

وليس يغير من ماهية الحلم فى شىء أن تضاف مادة جسمية إلى مصادره النفسية ؛ فالحلم يظل تحقيق رغبة أيا كانت الطريقة التى يتم عليها تحتم الصورة المفصحة عن هذا التحقيق بوساطة المادة الحاضرة حضوراً ناشطاً .

وإنى أفسح المجال هنا طواعية لطائفة من العوامل التى من شأنها أن تحدد مدى ما يكون للمنبهات الخارجية من الأهمية بالنسبة إلى الحلم ؛ فأن يسلك المرء على هذا النحو أو ذاك فى حالة بعينها من الحالات التى يشتد فيها التنبيه الموضوعى فى أثناء النوم اشتداد نسبياً ، ذلك — كما أتصوره — أمر تحدده مجموعة متآزرة من عوامل فردية ، فيزيولوجية ، عارضة ، تنشأ عن ملابسات الساعة : فعمق النوم عمقاً مألوفاً أو عارضا — مأخوذا فى علاقته بشدة المنبه — سوف يتيح فى حالة قمع المنبه بحيث لا يزعج النائم ويضطر النائم فى حالة أخرى إلى الاستيقاظ أو يؤيد محاولته فى أن يسكت المنبه بإدخاله فى نسيج حلم من الأحلام . وعلى حسب هذه التراكيب المتعددة الممكنة فإن الإفصاح

عن المنبهات الخارجية الموضوعية فى صورة حلم سوف يكثر عند هذا الشخص — أو يقل — عنه عند ذاك . فأما فيما يتعلق بى — أنا الذى أنام نوماً ممتازاً وأرفض رفضاً عنيداً أن أنزعج فى خلال النوم لأية علة كانت — فيندر كل الندرة أن تجد العلل الخارجية للتنبيه منفذا إلى أحلامى ، فى حين يتضح أن الدوافع النفسية تجعلنى أحلم فى سهولة لا مزيد عليها . والحق أنى لم ألحظ إلا حلماً واحداً يمكننا أن نتعرف فيه على منبه موضوعى أليم ، ويفيدنا فائدة كبرى أن نبحث أى أثر أحدثه المنبه الخارجى فى هذا الحلم بالذات .

أركب حصاناً رمادى اللون ، أركبه أول الأمر فى وجل ومن غير مهارة كما لو كنت لا أفعل سوى التعلق به . أقابل أحد الزملاء ، ب . ، وقد امتطى جواده عالياً ، مرتدياً حلة من الصوف . يجذب ب . نظرى إلى شىء ما (لعله سوء ركوبى) . أرانى الآن أحكم ركوب جوادى ذى الذكاء الخارق إحكاماً متزايداً ؛ فأستقر عليه مستريحاً ، وألحظ أننى أجدنى على صهوته كما لو كنت فى دارى . يقوم مقام السرج عندى شىء يشبه الحشية ، يشغل كل المسافة بين عنق الجواد ومؤخره . أجرى على هذا النحو بين عربتين . بعد أن قطعت شوطاً من الطريق أستدير وأريد النزول أول الأمر عند كنيسة صغيرة ، مفتوحة ، تقوم فى مواجهة الطريق . ثم بعدئذ أنزل بالفعل أمام كنيسة أخرى تقترب من الأولى . كان فندق يقع فى الطريق نفسه ، وكان يسعنى أن أترك الحصان يذهب إليه بمفرده . ولكننى آثرت أن أقوده إليه . كأنما كان على أن أستشعر الخجل إذ أصل إلى هناك راكباً . يقف أمام الفندق غلام يطلعنى على مذكرة لى عثر عليها ، ويهزأ بى من جرائها . كان مكتوباً على المذكرة — وقد خط سطران تحت ما كتب : «لا أكل» ، ثم جملة ثانية (غير متميزة) مثل : « لا عمل» . تصحب ذلك فكرة مبهمة مؤداها أننى فى مدينة غريبة لا أعمل فيها شيئاً .

إن المرء لا يفطن للوهلة الأولى إلى أن هذا الحلم قد جاء بتأثير من منبه أليم ، أو — على الأصح — تحت إكراهه . ولكننى كنت منذ بضعة أيام أعانى خراجات جعلت على من كل حركة عذاباً . وأخيراً ظهر فى كيس الخصيتين خراج بحجم التفاحة ، فكان سبباً فى ألم لا يطاق مع كل خطوة أخطوها . وحالف الألم على تنغيصى كلال محموم وفقدان للشهية ثم عمل النهار المضنى الذى مضيت رغم ذلك فيه . ولم أكن أملك كل القدرة على أداء تبعاتى الطبية ، ولكن من السهل — وتلك طبيعة العلة وموضعها — أن نتصور عملا آخر ، كنت من غير شك أقل صلاحية له منى لأى عمل سواه ، وأعنى به : الركوب . وذلك على التحقيق هو النشاط الذى يسلمنى الحلم إليه . لذلك أقوى إنكار للمرض يستطيع أن يذهب إليه الخيال ! والحق أنى لا أعرف الركوب ولا حلمت به غير هذا الحلم ، كل الأمر أنى أجلست على حصان مرة فى حياتى وكان الحصان بغير سرج ولم أجد فى ذلك متعة . ولكننى أركب فى هذا الحلم ، كأن لم يكن عندى خراج فيما بين الفخذين أو — على الأصح — لأننى لا أريد أن يكون ثمت خراج .

وما السرج الذى جلست عليه — إذا حكمنا استناداً إلى وصفه — إلا الكمادة التى أعانتنى على النوم . وأغلب الظن أنى — وقد هدأنى فعلها — لم أستشعر الألم فى خلال الساعات الأولى من النوم . بيد أن الإحساسات المؤلمة أخذت بعدها فى الظهور عاملة على إيقاظى ، فأتى عندئذ الحلم يقول مهونا : « امض فى سباتك فما بك من حاجة إلى الاستيقاظ ، وما بك خراج ، فأنت تركب جوادا وما يستطيع امرؤ الركوب لو كان يشكو خراجاً فى مثل هذا الموضع ! » ونجح الحلم فى مأربه ، فأخرس الألم ومضيت فى نومى .

ولكن الحلم لم يكفه أن « يوحى إلىّ » زوال الخراج ، بالإلحاح على فكرة لا تتفق مع الألم الذى كنت أعانيه ، متخذا فى ذلك مسلك الهجاس الهلوسى الذى تسلكه الأم فقدت ولدها[1] أو التاجر ضيعت خسائره ثروته . كلا ، بل إن تفاصيل الإحساس المراد استبعاده وتفاصيل الصورة التى استخدمت فى كبت هذا الإحساس قد أفادت الحلم هى الأخرى من حيث كانت أداة توسل بها الحلم إلى أن يربط بالموقف الذى ظهر فيه سائرَ ما كان حاضراً فى النفس حضوراً ناشطاً وتوسل بها إلى تصويره . فأنا أركب حصاناً رمادى اللون ، ولون الحصان هو هو لون الحلة التى كان يرتديها صديقى ب . حين قابلته أخيراً فى الريف : لون الملح والفلفل . ولقد عزوت خراجاتى إلى أننى كنت أكلت طعاماً زخر بالتوابل — وهو تعليل أقل ما يقال عنه هو أنه يفضل مرض السكر الذى قد يتجه الذهن إليه أيضاً بمناسبة الخراجات . وصديقى ب . يحب أن يركب جواده العالى معى[2] منذ أن خلفنى لدى مريضة من المريضات كنت قد أظهرت فى علاجها الأفانين (كنت فى أول الحلم أركب الحصان من جانب واحد مثلما يفعل راكب متفنن) ، ولكنها فى الحقيقة — مثل الجواد فى قصة فارس الأحد[3] — كانت تقودنى حيثما تشاء .

---

(١) أنظر الفقرة الواردة عند جرايزنجر [والمشار إليها فى ص١٢٢] ، وكذلك الملاحظات الواردة فى مقالى الثانية عن الأعصبة النفسية الدفاعية (فرويد ١٨٩٦ ب) .

(٢) [تعبير يقال كناية عن الاستعلاء والمباهاة .]

(٣) [بين خطابات فرويد إلى فليس (فرويد ١٩٥٠ أ) خطاب يتحدث فيه عن " المبدأ المعروف ، مبدأ إيتسيج فارس الأحد : إيتسيج ، إلام أنت راكب ؟ لا تسألنى ، اسأل الحصان ! "]

وهكذا صار الحصان يرمز للمريضة (كان خارق الذكاء فى الحلم) . وأما جملة « أحس أننى على صهوته كما لو كنت فى دارى » فتشير إلى المكانة التى كنت أشغلها فى منزل هاته المريضة قبل أن تخلفنى فيه ب . وكان أحد القلائل من ذوى الفضل علىّ بين كبار أطباء هذه المدينة قد قال لى منذ زمن غير بعيد وهو يشير إلى هذا المنزل : « كنت أظنك ثابتاً على السرج هناك » . ثم أن أقوم بالتطبيب النفسى من ثمانى إلى عشر ساعات فى اليوم وبى كل هذا الألم — ذلك أيضاً كان فعل رجل مفن[1] . غير أننى كنت أعلم أننى لن أستطيع مواصلة عملى الجم الصعوبة بغير عافية مكتملة ، والحلم ملىء بالإشارات العابسة إلى ما ليس بد من حدوثه عندئذ (المذكرة ، مثل المذكرات التى يحملها مرضى النوراستانيا لكى يُروا الطبيب إياها) : لاعمل ، لا أكل . وحين واصلت تفسير الحلم رأيت أن عمل الحلم قد أفلح فى أن يجد طريقاً يمتد من الموقف المرغوب فيه ، موقف الراكب ، إلى مشاهد شجار ترجع إلى طفولتى المبكرة ، مشاهد لا بد أنها وقعت بينى وبين ابن أخ لى يعيش اليوم فى إنجلترا ، وكان بعد يكبرنى بعام واحد . والحلم فوق ذلك قد استمد بعض عناصره من رحلاتى إلى إيطاليا : فالشارع قد تركب من انطباعات من ڤيرونا وسيينا ، ثم إن تعمق التفسير إلى أبعد من ذلك يسوق إلى أفكار جنسية ، وإنى لأتذكر ماذا كانت تعنيه الإشارة إلى إيطاليا فى أحلام مريضة لم تكن قد رأت قط هذا البلد الجميل (gen Italien [إلى إيطاليا] — Genitalien [الأعضاء التناسلية]) ، ولم يكن ذلك أيضاً بغير ارتباط بالمنزل الذى كنت طبيبه قبل ب . وبالموضع الذى ظهر فيه خراجى .

وثمت حلم آخر أفلحت فيه بطريقة مماثلة فى أن أدفع خطراً هدد بأن يقطع نومى ، أتى هذه المرة من منبه حسى ، إلا أن الصدفة وحدها هى التى مكنتنى فى تلك الحالة من أن اكتشفت الرابطة بين هذا الحلم وبين منبهه الطارئ ومن أن أفهم الحلم تبعاً لذلك . فقد استيقظت ذات صباح — وكان ذلك فى أوج الصيف ، فى مكان جبلى بالتيرول — وأنا أذكر أننى قد حلمت بهذا الحلم : مات البابا . واستعصى على أن أفسر هذا الحلم القصير ، غير البصرى ، ولم أذكر سوى أصل من أصوله ، وهو أننى كنت قد طالعت فى

(١) [أى يفعل الأعاجيب .]

إحدى الصحف أن قداسة البابا كان يشكو توعكا خفيفاً . غير أن امرأتى سألتنى فى خلال الصباح : أسمعت قرع الأجراس المفزع صباح اليوم ؟ ولم أكن أعلم ذلك، لم أكن أعلم أنى سمعتها ، ولكنى أفهم الآن حلمى : إنه كان استجابة استجابت بها حاجتى إلى النوم تجاه الضوضاء التى أراد أهل التيرول الأتقياء إيقاظى بها ؛ لقد أدركت منهم ثأرى بأن خلصت إلى تلك النتيجة التى تكون منها محتوى الحلم ، ثم مضيت فى نومى دون أدنى مزيد من الاحتفال بالأجراس وقرعها .

وبين الأحلام التى ذكرناها فى الفصول السابقة أحلام كثيرة ، يمكن اتخاذها أمثلة على الصياغة الجديدة التى تلقاها المنبهات المسماة منبهات عصبية . فما حلمت به من شرب الماء على جرعات كبيرة [ص ١٥٠] كان مثالا على ذلك ؛ فقد كان المنبه الجسمى مصدره الوحيد — فيما يبدو — وكانت الرغبة الناشئة عن الإحساس — وأعنى بها العطش — هى الدافع الوحيد إليه . والأمر أشبه بذلك فى أحلام أخرى خالية من التعقيد ، يبدو المنبه الجسمى فيها قادراً بذاته على أن يخلق رغبة . وحلم المريضة التى ألقت فى أثناء الليل بالجهاز المبرد عن خدها [ص ١٥٢] يرينا منهجاً غير مألوف فى الاستجابة إلى المنبه الأليم بتحقيق الرغبة : إن الموقف يبدو فى هذا المثال كما لو كانت الحالمة قد نجحت فى أن تجرد نفسها من حاسة الألم بأن تنسب آلامها إلى شخص عداها .

وحلمى ، حلم آلهات القدر الثلاث [ص ٢٢٤] ، كان صراحة حلم جوع ، إلا أنه عرف كيف ينقل الحاجة إلى الطعام راجعاً بها إلى رغبة الطفل فى صدر أمه ، وكيف يجعل من تلك الرغبة البريئة غطاء يستر به أخرى أشد خطراً ولا يجوز الإعراب عنها بمثل هذه الصراحة . وفى وسعنا أن نرى فى حلم الكونت تون أى طرق تربط بين حاجة جسمية عارضة وبين نوازع هى أشد نوازع الحياة النفسية عنفاً ، وإن تكن أيضاً أشدها حظا من القمع . وإذا كان القنصل الأول [نابليون] — على ما يرويه جارنييه — قد نسج حلماً بمعركة من دوى قنبلة انفجرت قبل أن يوقظه هذا الدوى ، فإنه قد كشف بذلك فى وضوح فريد فى بابه عن الدافع الأوحد الذى من أجله يشغل النشاط النفسى فى خلال النوم بالإحساسات . وأعرف محامياً شاباً نام فى عصر يوم وهو ممتلئ الرأس بأولى قضاياه الهامة ، سلك مسلكاً لا يفترق من مسلك نابليون العظيم فى شىء : فقد حلم برجل يدعى

ج . رايخ من [مدينة] هوسياتين ، وكان قد تعرف به فى قضية من القضايا ، وظل اسم هوسياتين هذا يلح عليه حتى استيقظ فإذا زوجه — وكانت تشكو رشحاً صدرياً — قد أخذتها نوبة من السعال [بالألمانية husten] .

ولنقارن حلم نابليون الأول الآنف الذكر (ونعلم أن نابليون كان ينام نوماً خارق العمق) بحلم ذلك الطالب النؤوم الذى جاءت ربة الدار توقظه ، وكان عليه أن يذهب إلى المستشفى ، فحلم أنه هناك ، راقد على أحد الأسرة ، ثم مضى فى نومه بحجة أنه لا يحتاج إلى النهوض من فراشه لكى يذهب إلى المستشفى ما دام موجودا به [ص١٥١] . إن من الواضح أن هذا الحلم حلم أخذ بالأسهل ، ولقد صارح الحالم نفسه بدافعه إلى إلى الحلم من غير خفاء . ولكنه بهذا عينه يكشف الغطاء عن سر من أسرار الحلم عامة : فكل الأحلام أحلام أخذ بالأسهل ، بمعنى من المعانى : فالهدف الذى تخدمه هو إطالة النوم بدل الاستيقاظ : إن الأحلام حراس النوم لا مزعجاته . وسيتاح لنا فى موضع آخر أن نبرر هذه النظرة فيما يتعلق بالعوامل النفسية التى تدفع إلى اليقظة [الفصل السابع ،القسم د] ،ولكننا نستطيع منذ الآن أن نبين صدق انطباقها فيما يتصل بنصيب المنبهات الخارجية . فالنفس إما أن تغفل جملة مناسبات الإحساس فى أثناء النوم — إذا وسعها هذا الإغفال على رغم شدة المنبهات ورغم ما تعرف من دلالتها — ، أو هى قد تلجأ إلى الحلم لكى تنكر به وجود هذه المنبهات ، أو هى — ثالثا — حين لا تجد مفراً من التسليم بها — تلتمس لها تفسيرا من شأنه أن يحيل الإحساس الحاضر الناشط إلى جزء مقوم من أجزاء موقف مرغوب فيه ، يتفق والنوم . فالإحساس الحاضر الناشط إنما ينسج فى حلم لكى يُسْلَبَ واقعيته . ولنابليون أن يمضى فى نومه ؛ فما يعمل على إزعاجه سوى حلم يذكر بقصف المدافع فى أركول[1] .

وهكذا فرغبة النوم التى يستغرق فيها الأنا الشعورى والتى تُكَوِّن بالإضافة إلى الرقابة وإلى المراجعة الثانوية التى يجىء ذكرها فيما بعد نصيبَ الأنا الشعورى فى الحلم - يجب أن يحسب حسابها فى كل حالة من حيث هى دافع إلى تكوين الحلم ،وكل حلم

(١) إن المرجعين اللذين عرفت منهما هذا الحلم لا يتفقان فى روايته .

ناجح هو تحقيق لهذه الرغبة . وسوف نبحث فى موضع آخر أمر العلاقة بين هذه الرغبة العامة التى لا تتخلف ولا تختلف — رغبة النوم — وبين سائر الرغبات التى يحقق محتوى الحلم الواحدة منها حينا ثم الأخرى حينا آخر . وأما الآن فإنا اكتشفنا فى رغبة النوم هذه ذلك العامل الذى يستطيع أن يسد وجه النقص فى نظرية شتروميل وڤونت وأن يفسر الطريقة الفاسدة التعسفية التى تفسر بها المنبهات الخارجية . فالتفسير الصحيح الذى يستطيع الذهن النائم إتيانه تمام الاستطاعة يتضمن اهتماماً فعالا ويستلزم إنهاء النوم . ولهذا السبب لم يُترك المجال إلا لما كان — بين جميع التفاسير الممكنة — متفقاً مع الرقابة المطلقة التى تزاولها الرغبة فى النوم . وكأنى بالحلم يقول : إنه البلبل لا القبرة ؛ فلو أنها كانت القبرة ، لكان معنى ذلك أن ليل العاشقين قد حان ختامه . وعلى ذلك لم يكن يُنتخب من بين التفاسير التى يمكن تفسير المنبه بها إلا هذا التفسير الذى يستطيع أن يوفر أحسن رباط بالاندفاعات الراغبة التى تتربص فى النفس . وهكذا كل شىء محتوم من غير لبس ، ولا شىء متروك للهوى ، وخطأ التفسير ليس وهما ، بل هو — إن جاز التعبير — مماطلة . ولكن علينا أن نسلم بأننا نجد أنفسنا هنا من جديد — كما فى حالة التبديل بالنقل وفقاً لمقاصد الرقابة [أنظر ص ١٩٩] — بإزاء فعل يحيد عن العمليات النفسية السوية .

وحين تبلغ المنبهات العصبية الخارجية والمنبهات الجسمية الباطنية حدا من الشدة يحمل النفس على الانتباه إليها ، فإنها تصير — هذا إذا أدت إلى الحلم وليس إلى اليقظة — بمثابة النقطة الثابتة فى تكوين الحلم ، نواة تجتمع من حولها مادته ، ويدور البحث عن تحقيق رغبة متسق معها ، على نحو ما يدور البحث عن أفكار وسطى تربط ما بين منبهين نفسيين (أنظر ماسبق [فى ص٢٤٦—٢٤٧]) . وإلى هذا المدى يصدق على بعض الأحلام أن العنصر الجسمى يملى فيها محتوى الحلم . ولقد يذهب الأمر فى هذه الحالة المتطرفة إلى حد استدعاء رغبة ليست بالحاضرة الناشطة من أجل تكوين الحلم . بيد أن الحلم لا يملك إلا أن يصور رغبة وقد تحققت فى موقف من المواقف ؛ فهو — إن جاز التعبير — يواجه تلك المشكلة : أن يبحث عن الرغبة التى يمكن تصوير تحقيقها بوساطة الإحساس الناشط حاضراً . فإن كانت هذه المادة الحاضره ذات طابع كريه أو مؤلم ، لم يعن ذلك بالضرورة أن استخدامها من أجل تكوين الحلم قد صار محالا ؛ فإن بالنفس رغبات يجلب تحقيقها

الألم، ولقد يبدو ذلك شيئاً متناقضاً ، ولكنه يدنو للفهم إذا لم ننس وجود نظامين نفسيين ووجود رقابة بينهما .

فى الحياة النفسية — كما رأينا — رغبات مكبوتة تنتمى إلى النظام الأول ، ويناقض النظام الثانى تحقيقها . وأنا إذ أقول : إن ثمت رغبات مكبوتة من هذا القبيل ، لا أطلق حكما تاريخياً قصاراه أن هذه الرغبات قد وجدت حينا ثم امحت ، بل إن نظرية الكبت التى لا يستغنى عنها المرء فى دراسة الأعصبة تؤكد أن هذه الرغبات المكبوتة لا تزال قائمة وإن قام فى الوقت نفسه معها كف يوازنها . ويصيب العرف اللغوى [فى الألمانية] كبد الحقيقة حين يتحدث فى صدد هذه الاندفاعات عن « Unterdrucken » [أى « دفع إلى أسفل» ومعناه القمع] . والحيل النفسية التى تمكن هذه الرغبات المقموعة من أن تشق طريقها إلى التحقيق لا تنى قائمة ، قابلة للاستخدام . ولكن دع رغبة مقموعة من هذا القبيل توضع موضع التنفيذ : إن كف النظام الثانى ، المغلوب على أمره (وهو النظام القادر على الصيرورة إلى الشعور) يفصح عندئذ عن نفسه فى صورة الألم . ولكى نختتم هذه المناقشة نقول: إنه إذا نشأت فى أثناء النوم إحساسات ذات طابع أليم صادرة عن مصادر جسمية ، استغل عمل الحلم هذا الوضع فى تصوير تحقيق رغبة تُلاقى عادة بالكف — هذا مع بقاء الرقابة إلى درجة تنقص أو تزيد[1] .

وهذا الوضع هو الذى يتيح وقوع طائفة من أحلام الهيلة ، فى حين تنم عن ميكانيكية مختلفة طائفة ثانية من تلك التراكيب الحلمية التى لا تحمل على تأييد نظرية الرغبة : ذلك أن الهيلة فى الأحلام قد تكون هيلة عصابية ، ناشئة عن تهييج نفسى جنسى ، وهى فى هذه الحالة تعدل ليبيدو مكبوتة . وعندئذ تكون للهيلة ، كما لحلم الهيلة جميعه ، قيمة العرض النفسى ، ونكون اقتربنا من الحد الذى يتحطم عنده ميل الحلم إلى تحقيق الرغبة . وأما أحلام الهيلة الأخرى فالهيلة فيها تنجم عن الجسم (مثلما يقع حين تعترى مرضى الرئتين أو القلب صعوبة فى التنفس) . وفى هذه الحالة تُستغل الهيلة فى المعاونة على أن تتحقق فى صورة الحلم رغبات مكبوتة كبتاً عنيفاً ، لو أن الدوافع إلى الحلم بها كانت دوافع نفسية لكانت النتيجة انطلاق الهيلة كذلك . وليس من الصعب

---

(١) [يعود فرويد إلى معالجة هذا الموضوع فى القسم ج من الفصل السابع، ص ٥٤٧ وما بعدها .]

أن نجمع بين هاتين الحالتين على ما يبدو من انفصالهما ؛ فى كلتاهما نجد عنصرين نفسيين مرتبطتين كلا بالآخر أوثق الارتباط ، هما نزوع وجدانى ومحتوى فكرى ، يستدعى أحدهما — وهو الحاضر الناشط — العنصر الآخر حتى فى الحلم : فطوراً تستدعى الهيلة المحتّمة بعلل جسمية المحتوى الفكرى للحلم ، وطوراً آخر يستتبع المحتوى الفكرى — بعد أن تحرر من عقال الكبت بما يصحبه من تهييج جنسى — يستتبع انطلاق الهيلة . ونستطيع أن نقول عن الحالة الأولى : إن حالة وجدانية محتمة بعلل جسمية قد لقيت فيها تفسيرا نفسيا ، وأما الحالة الثانية فالكل فيها ذو أصل نفسى إلا أن تفسيراً جسمياً يتلائم والهيلة قد حل فيها من غير عناء محل المحتوى الذى كان مكبوتاً . وعلى أية حال ، فإن الصعوبات التى نلقاها فى فهم هذا كله لا تحمل كبير صلة بمسألة الأحلام : إنها ترجع إلى كوننا نقترب ههنا من مشكلة نشوء الهيلة ومشكلة الكبت .

وما من شك فى أن الحالة المزاجية العامة [أنظر ص ٧٢] للجسم تدخل فى عداد المنبهات الجسمانية الباطنة التى تتحكم فى محتوى الحلم ؛ لا لكونها تستطيع أن تمد الحلم بمحتواه ، ولكنها تملى على أفكار الحلم أن تختار ما تختاره من المادة المعدة لأن تصور فى محتوى الحلم ، وذلك من حيث أنها تقرب ما كان من أجزاء تلك المادة متلائماً وطبيعتها بينا تبعد الأجزاء الأخرى . أضف إلى ذلك أن تلك الحالة المزاجية العامة المتخلفة من النهار ترتبط يقينا ببقايا النهار النفسية — مع ما لهذه من أهمية بالنسبة إلى الحلم . ولقد يبقى هذا المزاج هو هو فى خلال النوم ، وقد تتم الغلبة عليه فإن كان ألمياً انقلب إلى الضد .

وهكذا أقدر أن مصادر التنبيه الجسمية (أى إحساسات النوم) إنما تأخذ من تكوين الحلم بنصيب يماثل نصيب ما يتخلف عن النهار من انطباعات حديثة العهد لكنها خالية من الشأن — هذا إلا إذا كانت تلك المصادر ذات شدة غير مألوفة . أى أننى أعتقد أن الأحاسيس الجسمية إنما يستعان بها فى تكوين محتوى الحلم إذا كانت تتلائم والمحتوى الفكرى المستمد من مصادر الحلم النفسية بحيث يمكن التوحيد بينها وبين هذا المحتوى الفكرى ، وإلا لم يستعن بها . فهى تعامل بمثل ما تعامل به مادة رخيصة سهلة

المنال فى كل وقت ، تنطاع للمرء كلما احتاج إليها ، وليس كمادة ثمينة ، تفرض بذاتها وجه استخدامها . فمثل الحال هنا كمثل أحد الحادبين على الفنون الجميلة أتى فناناً بحجر كريم — كقطعة من العقيق — لكى يصوغ منه أثراً فنياً ؛ إن حجم القطعة ولونها وتشريحها سوف تعين الفنان على أن يقرر أى رأس أو أى منظر يصلح لأن يصور فيها، على حين أن الفنان لا يحتاج فى مادة متساوية موفورة — كالمرمر أو الحجر — إلى غير متابعة الفكرة التى تهيأت فى ذهنه . وعلى هذا النحو وحده نفهم — فيما يهيأ إلى — تلك الحقيقة : أن المنبهات العضوية ذات الشدة المألوفة لا تظهر آثارها فى محتوى الحلم فى كل حلم وفى كل ليلة ، وإن زودت الحلم ببعض محتواه أحياناً[1] [أنظر ص ٢٤٥] .

وربما كان أحسن ما يوضح معنى مثال يعود بنا ممن جديد إلى تفسير الأحلام . فقد كنت أجهد ذات يوم فى فهم المعنى الذى تراه يكون لهذا الإحساس الذى يكثر فى الأحلام أيما كثرة ويقرب من الهيلة أيما قرب : حين يشعر المرء بأنه قد كف ، أو سمر فى موضعه ، أو فقد القدرة على إتيان عمل من الأعمال ، الخ. فلما كان الليل جاءنى هذا الحلم

أصعد السلم وأنا مرتد ثيابى منقوصة إلى حد كبير ، من شقة فى الطابق الأرضى إلى طابق أعلى . كنت أنهب السلم ثلاث درجات فى كل خطوة وأنا سعيد بهذه الخفة. أرى فجأة خادماً تنزل السلم ، أى مقبلة نحوى . يتولانى الخجل وأريد أن أمضى مسرعاً ، وفى هذه اللحظة يحل بى هذا الشعور بالكف: لقد سمرت على الدرج ولم أعد أستطيع حراكاً من موضعى .

التحليل : إن الموقف الذى يظهر فى الحلم مأخوذ من واقع كل يوم ؛ فأنا أشغل فى منزل بثيينا شقتين لا يصل بينهما سوى السلم المشترك . وتقع غرفة الاستشارة مع مكتبى فى الطابق الأول ، بينما تقع غرف السكن فى الطابق الأعلى . فإذا فرغت من عملى فى ساعة متأخرة من الليل صعدت السلم إلى حجرة النوم . وكنت فى الأمسية التى سبقت الحلم قد قطعت هذه المسافة القصيرة وأنا حقيقة مبعثر الثياب بعض الشىء ، وأعنى أننى نزعت البنيقة وربطة العنق والأكمام . وتزيد فى الحلم درجة التجرد من الثياب — وإن

---

(١) لقد بين رانك فى مقالات متعددة أن الأحلام الغالبة اليقظة والتى تحدث عن منبهات عضوية (مثل الأحلام ذات المنبه البولى وأحلام الإنزال) تصلح صلاحية خاصة للبرهنة على الصراع بين الحاجة إلى النوم ومطالب الحاجات العضوية ، وكذلك على تأثير تلك الحاجات فى محتوى الحلم .

بقيت غير محددة، كما هو الشأن عادة [أنظر ٢٦٠ وص٢٦٢] . ومن عادتى أن أنهب السلم على هذا النحو ، وهى عادة كان جلياً فى الحلم أيضاً أنها تحقق رغبة ؛ فالسهولة التى أصعد السلم بها كانت تطمئننى إلى حالة القلب عندى . وعدا ذلك ، كانت هذه الطريقة فى الصعود تناقض الكف الذى أعقب فى النصف الثانى من الحلم مناقضة فعالة ، إنها كانت تريني — وهو ما لم يكن محتاجاً إلى برهان — أن الأحلام لا تجد أقل صعوبة فى تصوير الأفعال الحركية وهى تؤدى أداء يبلغ حد الكمال . ويكفى أن يفكر المرء فى أحلام الطيران !

غير أن الدرج الذى أصعده لم يكن درج منزلى . وقد عجزت للوهلة الأولى عن معرفته ، ولم أتبين أى مكان هو المعنى إلا حين عرفت من هو الشخص الذى أقبل نحوى : إن هذا الشخص خادم تعمل لدى سيدة متقدمة فى السن أزورها فى كل يوم مرتين لكى أحقنها . والسلم أيضاً كان يشبه كل الشبه سلم منزلها ، هذا السلم الذى كنت أصعده فى النهار مرتين .

ولكن كيف كان لهذا السلم ولهذا الشخص الأنثوى أن يدخلا حلمى ؟ إن الخجل لتجردى من الثياب بعض التجرد خجل ذو طابع جنسى من غير شك . ولكن الخادم التى أحلم بها تكبرنى سنا ، عبوس ، عاطل ولا شك من الحاذبية . الجواب الوحيد الذى يخطر لى هنا هو هذا : كنت عندما أزور هذا المنزل زيارة الصباح يتنابنى السعال عادة وأنا أصعد السلم . ولم يكن بد من أن يقع البصاق على الدرج ؛ فلم تكن هناك مبصقة فى أى من هذين الطابقين ، وكانت وجهة نظرى هى أن نظافة السلم لا ينبغى صونها على حسابى ، بل يجب تيسيرها بوضع المبصقات . ولكن بوابة المنزل — وهى أيضاً عجوز عبوس — وإن تكن فطرت على النظافة ، كما أسلم به طائعاً — كانت ترى رأيا مختلفاً : فهى ترقبنى لترى هل أبيح لنفسى الفعل الذى ذكرته ، فإن رأتنى أفعله سمعت لها همهمة لا تُخْطِئ ، وظلت بعد ذلك أياماً لا تجيب التحية بمثلها . واتفق فى يوم الحلم أن انتصرت الخادم لحزب البوابة : فقد كنت فرغت على عجل — شأنى دائماً — من زيارة المريضة ، حين استوقفتنى الخادم لتدلى بهذه الملاحظة : « يا سيدى الطبيب أما كان يسعك أن تمسح نعليك اليوم قبل أن تدخل الحجرة ، لقد اتسخت السجادة الحمراء

كلها من قدميك مرة أخرى . » وهذا هو كل ما يخول للسلم والخادم أن يظهرا فى حلمى .

وهناك رباط باطن يربط ما بين انتهاب السلم والبصق عليه . فالسعال — كمرض القلب — يعد لوناً من العقاب على رذيلة التدخين ، وهى رذيلة كان من جرائها أن سمعتى من ناحية النظافة لم تكن على أحسن ما يرام قبل السلطات المعنية فى منزلى نفسى ؛ إنها ضعيفة فى كلا المنزلين على السواء حتى أن الحلم قد مزجهما فى صورة واحدة .

ولست أجد بدا من أن أرجئ المضى فى تفسير الحلم حتى أبين منشأ هذه الأحلام النمطية التى نرى فيها أنفسنا متجردين بعض التجرد من الثياب . وإنما أكتفى هنا بالإشارة إلى نتيجة موقوتة تخلص من الحلم الذى رويته ، وهى : أن الشعور بكف الحركة إنما ينشأ فى الحلم كلما اقتضت ذلك ملابسات خاصة . فمن المحال أن تكون علة هذا المحتوى الحلمى تغيراً خاصاً طرأ على قدرتى الحركية فى أثناء النوم ؛ فقد رأيتنى منذ لحظة سبقت (كأنما كان المراد دعم ما أقول) وأنا أهرول على الدرج دون ما عناء .

د

الأحلام النمطية

إننا لا نجد نفسنا — بوجه عام — فى موقف يسمح لنا بأن نفسر أحلام شخص سوانا ، إلا إذا قبل الحالم أن ينقل إلينا أفكاره اللاشعورية الكامنة وراء محتوى الحلم ؛ ولهذا حُدّ إلى مدى كبير إمكان التطبيق العملى لمنهجنا فى تفسير الأحلام[1] . غير أن هناك أحلاماً تخالف كل المخالفة هذه الحرية التى يملكها كل فرد فى أن يشكل دنيا

---

(١) إن القول بأن منهجنا فى تفسير الأحلام لا يمكن تطبيقه إلا إذا وقفنا على المادة الاستدعائية عند الحالم يقتضى تكلمته بالنص على أن نشاطنا التفسيرى يصبح مستقلا عند هذه المستدعيات فى حالة واحدة : إذا

الحلم عنده على حسب خصوصيته ، جاعلا فهمها أمراً ممتنعاً على الآخرين : إنها أحلام لا يكاد يكون بيننا امرؤ لم يحلم بها على نحو لا يختلف عنده منه عند الآخرين وألفنا أن نفترض لها معنى واحداً عند الجميع . هذه الأحلام النمطية هى أيضاً أحلام ذات أهمية خاصة ؛ لأنها تنشأ فى الراجح من مصادر واحدة عند جميع الناس ، وهى لذلك تبدو ذات صلاحية خاصة لأن تلقى بعض الضوء على مصادر الحلم .

ومن ثمت كنا نأخذ فى تطبيق منهجنا التفسيرى على هذه الأحلام النمطية ونحن نعقد عليه آمالا كبارا ، لكى نتبين بعد ذلك على مضض أن منهجنا هذا لا يجيب تلك الآمال الكبار فيما يتصل بهذه المادة بالذات . ذلك أن الذى يقع عادة حين نتعرض لتفسير الأحلام النمطية هو أن تغيض خواطر الحالم — تلك الخواطر التى كانت تتيح لنا فهم الحلم فى غير ذلك من الحالات — أو هى تغمض وتندر ، بحيث نعجز عن أن نحل مشكلتنا بمعاونتها .

فما منشأ ذلك ؟ وكيف نسد هذا النقص فى طريقتنا ؟ ذلك ما سوف يتضح فى موضع آت من هذا الكتاب [القسم هـ من الفصل السابع] ، وعندئذ سوف يتبين أيضاً للقارئ لم كنت لا أستطيع أن أتناول هنا سوى أنماط قليلة من مجموعة الأحلام النمطية ، مرجئاً مناقشة ما عداها إلى ذلك الحين .

(أ) أحلام الارتباك من جراء العرى

إن الأحلام التى يرى فيها المرء نفسه عارياً من الثياب أو متجرداً بعض التجرد منها قد تتسم أيضاً بتلك السمة : وهى أن يغيب عند الحالم كل شعور بالخجل أو بما شاكله . ولكننا لن نشغل بأحلام العرى إلا حين يستشعر فيها المرء الخجل والارتباك ، ويريد الفرار أو الاختباء ، وعندئذ يتولاه كف غريب ، فلا يستطيع من موضعه حراكاً ،

استخدم الحالم عناصر رمزية فى محتوى الحلم . فعندئذ يتسنى لنا أن نلتجىء إلى منهج فى تفسير الحلم يمكن وصفه وصفاً دقيقاً بأنه منهج ثانوى مساعد . (أنظر ما يلى [القسم هـ من الفصل السابع .])

ويحس العجز عن أن يغير من موقفه الأليم . وبغير هذه المصاحبة لا يكون الحلم حلماً نمطياً ؛ فلا شيء يمنع إذا هي ارتفعت من أن تدرج النواة التي يدور من حولها محتوى الحلم وسط ملابسات من كل نوع ، أو من أن تزان بتطاريز تختلف باختلاف الأفراد . فالحلم يقوم في جوهره [من حيث هو حلم نمطي] في هذا الشعور الأليم الذي هو خجل ، وفي كون المرء يود لو أخفى عريه — بالحركة في أغلب الأحايين — ولكنه يجد نفسه عاجزاً دون ذلك . وأعتقد أن الغالبية العظمى من القراء قد عرفوا هذا الموقف في الحلم .

والمألوف هو أن يكون نوع العرى ومداه بعيدين عن الوضوح . فقد نسمع الحالم يقول : « كنت أرتدي قميصا » ، ولكن قل أن تكون هذه صورة متميزة . فالعرى في الأغلب غير محدد ، حتى أن الراوي يعدد في وصفه الاحتمالات : « كنت ألبس قميصاً أو معطفاً » . والنقص في الثياب لا يكون في العادة خطراً إلى المدى الذي يبدو معه مبرراً لما يصحبه من الخجل ، بل إن العرى كثيرا ما تستبدل به عند من ألف الملابس العسكرية طريقة في الارتداء تخرج بعض الشيء على التعليمات : « كنت أسير في الطريق بغير سيف ورأيت بعض الضباط يقبلون » ، أو « كنت بغير ربطة عنق » ، أو « كنت أرتدي سراويل مدنية » ، الخ .

وأما الناس الذين يستشعر المرء قبالتهم هذا الخجل فيكادون أن يكونوا دائماً غرباء تركت سماتهم من غير تحديد . ولا يحدث أبدا في الحلم النمطي أن تلقى طريقة الارتداء التي توقع صاحبها في كل هذا الارتباك اعتراضاً ، ولا هي تُعار التفاتا ، بل تحمل الناس على العكس وجوهاً لا تبالي أو — كما لحظته في حلم فريد في دلالته — وقورة ، جامدة . لفي ذلك مدعاة إلى التفكير !

نعم ، إن ارتباك الحالم وقلة احتفال الناس بطالعاننا — مجتمعين — بتناقض من قبيل ما يكثر وقوعه في الأحلام : فإنما كان يماشي مشاعر الحالم أن ينظر إليه الغرباء في دهش واستهزاء أو مستنكرين . بيد أني أظن أن هذا الوجه الفاضح من الموقف قد أزيل بفعل تحقيق الرغبة في حين أبقت على الوجه الآخر [الارتباك] قوة من القوى ؛ وهكذا لا يتوائم الشطران كلا والآخر . ولدينا شاهد ممتع على أن الحلم في صورته التي شوهتها الرقابة تشويهاً جزئياً لم يلق فهمه الصحيح . ذلك أن هذا الحلم قد كان الأساس الذي بنيت عليه قصة صرنا جميعاً نعرفها في رواية هانس أندرسن (« حلة الإمبراطور الجديدة ») ،

ونظمها حديثاً لودفيج فولدا فى « الطلسمان » : تحدثنا قصة أندرسن عن محتالين نسجا للأمبراطور رداء غالى الثمن لا يراه إلا الأخيار المخلصون ويخرج الأمبراطور مرتديا هذا الرداء الخفى ، ويخاف الناس مما يزعم للنسيج من القدرة على امتحانهم ، فيسلكون كما لو كانوا لا يرون عرى الأمبراطور .

ولكن هذا عينه هو الموقف الذى نجده فى حلمنا . ولسنا نجازف كثيراً حين نقدر أن لا معقولية الحلم هى التى كانت الحافز إلى اختراع رداء يجعل لهذا الموقف — كما يمثل فى ذاكرتنا بعد الحلم — معنى ما . صحيح أن الموقف يُسلب فى أثناء ذلك معناه الأصلى ويسخر فى خدمة أغراض مغايرة . ولكن مثل هذا الفهم الخاطئ الذى يلقاه محتوى الحلم من جانب النشاط الفكرى الشعورى الصادر عن نظام نفسى ثان - سوف نعلم أنه أمر كثير الوقوع وأنه يجب أن يعد بين العوامل التى تخلع على صورة الحلم شكلها الأخير[1] ، وسوف نعلم فوق ذلك أن أخطاء مماثلة فى الفهم — تقع أيضاً فى نطاق الشخصية النفسية الواحدة — تشارك بنصيب رئيس فى تكوين الأفكار القهرية والمخاوف الشاذة . ثم إن من السهل فيما يتصل بحلمنا أن نبين من أين استقيت المادة التى أقيم عليها التفسير الخاطئ : فالمحتال هو الحلم ، والأمبراطور هو الحالم نفسه ، والميل إلى الموعظة الخلقية ينم عن معرفة مبهمة بأن الأمر يدور فى محتوى الحلم الكامن حول رغبات محرمة ، ذهبت ضحية الكبت . والحق أن السياق الذى تظهر فيه أمثال هذه الأحلام فى أثناء قيامى بتحليل العصابيين لا يترك أقل مجال للشك فى أن الحلم قائم على ذكريات ترجع إلى الطفولة المبكرة . فطفولتنا هى الزمن الوحيد الذى كنا نُرى فيه غير مكتملى الثياب سواء أمن الأقربين أم من الغرباء ، كالمربيات والخدم والزوار ، ولم نكن إذ ذاك نشعر بالخجل لعرينا[2] . ونستطيع أن نلحظ كيف يطرب الكثير من الأطفال ، ممن تقدموا مع ذلك بعض التقدم فى السن ، حين ينزعون ملابسهم ، يطربون إلى ما يقارب الثمل بدل أن يخجلوا ، فهم يتضاحكون ويتواثبون ويتبادلون الضربات على صفحات أجسامهم ، بينا تقرعهم أمهم أو من اتفق حضورها قائلة : آه ، إن هذا عار لا يجوز . والأطفال كثيراً ما يظهرون التذاذهم بأن يعرضوا أنفسهم ؛ فلا يكاد المرء يمر بقرية فى ريفنا دون أن

---

(١) [يشير فرويد هنا إلى عملية " المراجعة الثانوية " التى يشرحها فى القسم ط من الفصل السادس .]

(٢) وقصة أندرسون يظهر فيها طفل كذلك ؛ فطفل هو الذى يصيح : ولكنه عار !

يصادف طفلا فى الثانية أو الثالثة يرفع أمامه جلبابه الصغير — ربما على سبيل التكريم . وبين مرضاى مريض حفظت ذاكرته الشعورية مشهداً وقع له وهو فى الثامنة من عمره ، حين أراد وقد نزع ثيابه متأهباً للنوم أن يرقص وليس عليه سوى القميص فى الحجرة المجاورة حيث أخته الصغيرة ، فصدته المربية عن مراده . والتعرى أمام أطفال الجنس الآخر ظاهرة لها نصيب ضخم فى تاريخ الطفولة عند العصابيين ، كما أن ما يهيأ فى البارانويا للمريض من أنه ملحوظ حين يرتدى ثيابه وحين ينزعها يجب إرجاعه إلى خبرات من هذا القبيل . هذا بينما نجد بين من بقوا على انحرافهم طبقة اشتد عندها هذا الاندفاع الطفلى حتى بلغ مبلغ العرض المرضى : تلك هى طبقة المستعرضين .

هذه الفترة من الطفولة التى لا تعرف الخجل تبدو للنظر حين نرده إليها ضربا من الفردوس . والفردوس نفسه إن هو إلا تخييل جماعى عن طفولة الفرد ؛ لهذا كان الناس فى الفردوس كذلك عراة لا يخجلون حين يتواجهون ، إلى أن جاء أوان فاستيقظ الخجل ودب الهول وتبع الطرد[1] وأخذت الحياة الجنسية ومشاغل العمران فى المسير . ولكن الحلم مستطيع أن يسرى بنا فيعيدنا إلى هذا الفردوس من جديد ، ولقد أعربت من قبل [ص ٢٤١] عن ظن مؤداه أن انطباعات الطفولة (أعنى من فترة ما قبل التاريخ إلى أن تقارب السنة الثالثة ختامها) تسعى إلى التكرار من تلقاء ذاتها ولذاتها ، وربما سعت إليه بغض النظر عن محتواها ، وأن تكرارها هذا يحقق رغبة . وهكذا تكون أحلام العرى أحلام استعراض[2] .

والحلم الاستعراضى تتكون نواته من الحالم الذى لا يتراءى على ما كان عليه فى طفولته بل كما هو فى حاضره ، ومن ردائه المنقوص الذى يبدو غير متميز ، سواء أرجع ذلك إلى تراكم ما أعقب من ذكريات لا حصر لها عن نزعه ملابسه أم رجع إلى الرقابة ، ثم يأتى بعد ذلك الأشخاص الذين يخجل فى محضرهم . ولست أعرف مثالا واحداً عاود فيه الظهور فى الحلم أولئك الذين قد شهدوا حقيقة ذاك الاستعراض الطفلى ؛ فالحلم لا يكون

---

(١) [الطرد ، هو طرد آدم وحواء من الجنة على حسب قصة التوراة المعروفة فى سفر التكوين ، وقد رواها القرآن رواية مقتضبة أطولها ما جاء منها فى سورة البقرة . والهول بمعنى الهيلة .]

(٢) لقد سجل فرنتسى طائفة جديرة بالاهتمام من أحلام العرى حلمت بها نساء . ولم تكن هناك صعوبة فى تأثر هذه الأحلام إلى الرغبة الطفلية فى الاستعراض ، إلا أنها كانت تختلف فى بعض نواحيها من الأحلام " النمطية " التى أعالجها فى النص .

أبدا ذكرى وحسب ، ومن العجيب أن أولئك الأشخاص الذين يتجه إليهم اهتمامنا الجنسى فى طفولتنا يتركون جانباً فى كل استحضار يقع فى الحلم أو فى الهستريا أو فى العصاب القهرى . البارانويا وحدها هى التى تعود إلى هؤلاء المشاهدين فتنصبهم من جديد وتستدل على وجودهم فى يقين ملؤه التعصب ، وإن ظلوا غير منظورين . وأما ما يحل محلهم فى الحلم — « كثرة من الغرباء » لا تلقى بالا إلى المشهد المعروض عليها — فإن هو على التحقيق إلا الضد المرغوب لذاك الشخص المفرد عينه الذى قد ألفه الحالم يوماً والذى من أجله كان التعرى . وهذه الـ « كثرة من الغرباء » تظهر بعد فى الأحلام كثيراً ، فى سياق يتنوع بتنوع المقاصد ، وهى عندئذ تعنى دائماً — باعتبارها رغبة مضادة — « فى الخفاء [1] ». وإنا لنلحظ كيف لا تخلو البارانويا ذاتها — حيث يتحقق استرجاع الوضع القديم — من أثر هذا الاتجاه المضاد ؛ ففيها يحس المريض أنه لم يعد وحده : إنه موقن من أن ثمت آخرين يرقبونه ، ولكن مراقبيه « كثرة من الغرباء متروكين من غير تحديد على نحو عجيب » .

والكبت أيضاً له كلمته فى أحلام الاستعراض؛ فالشعور الأليم الذى يرد فى الحلم إنما هو رد النظام النفسى الثانى على نجاح المشهد الطفلى فى أن يعرب عن محتواه على الرغم من تحريمه . والسبيل الوحيد إلى تجنب هذا الألم هو ألا يبعث ذلك المشهد أبدا .

ونعود فيما بعد إلى الشعور بالكف [ص٣٤٤]. وإنما نقول الآن: إنه يصور فى الحلم — تصويراً ما أوفقه ! — صراع الإرادة ، يصور « كلا » ؛ فالغاية اللاشعورية تأبى إلا متابعة الاستعراض والرقابة تأبى إلا إيقافه .

وما من شك فى أن الروابط بين أحلامنا النمطية وبين قصص الأطفال وغيره من مؤلفات الخيال ليست بالقليلة ولا بالعارضة . ويتفق أحياناً أن تتسنى لفنان خالق نافذ البصر معرفة تحليلية بعملية التحول التى لا يكون الفنان عادة سوى مطيتها ، فإذا هو — وقد تتبع تلك العملية فى اتجاه عكسى — يرد الأثر الفنى إلى الحلم . ولقد نبهنى صديق إلى فقرة خطها جوتفريد كيللر فى « هاينريخ اليانع » جاء فيها : « ولست أود لك يا عزيزى لى أن تعلم أبدا علم المتعظ بنفسه ما حواه من صدق لاذع فريد ذلك الموقف من الأوديسا ، حيث يظهر أوليس عاريا ، مغطى بالوحل أمام أعين نوسيكا وقريناتها .

(١) ومما له هذا المعنى أيضاً حضور " العائلة مجتمعة " وذلك لأسباب لا تخفى على الفهم.

أتريد أن تعلم كيف يقع ذلك ؟ لنكثب النظر إذن إلى مثالنا : لو أنك جولت فى الغربة بعيداً عن وطنك وعن كل عزيز عليك ، ورأيت كثيراً وخبرت كثيراً ، وعرفت الأسى والهم ، وصرت إلى تعس وضياع بلغا منك النهاية ، إذن لحلمت لا محالة فى ليلة أنك تدنو من وطنك . لسوف تراه مشرقاً زاهياً فى أبهى الألوان، وهاهى ذى أطياف رحيمة، رقيقة ، حبيبة تقترب منك ، وهنا ينكشف لك فجأة أنك فى سمال ، عار ، عليك غبار . وعندئذ يتولاك خجل لا وصف له ، ولسوف تبحث عما يسترك أو يخفيك ، ثم تصحو فى عرق مصبوب . ذلك ، ما بقى على الأرض الإنسان ، حلم الرجل أثقلته الأحزان وتطارحته الرياح ؛ فما استمد هومير صفحاته هاته إلا من أعمق أعماق الوجود الإنسانى وخالده . »

وأعمق ما فى الوجود الإنسانى وخالده ، هذا الذى يعتمد الشاعر عادة على استثارته ، يقوم فى هذه الاندفاعات النفسية التى تضرب جذورها فى طفولة آلت من بعد إلى ما قبل التاريخ . فهناك رغبات من رغبات الطفولة مكبوتة، ممنوعة ، تنفذ إلى الحلم مستترة وراء رغبات الشريد التى لا اعتراض عليها والتى يمكن قبولها فى الشعور . ولهذا كان الحلم الذى يتجسم فى أسطورة نوسيكا ينقلب دائماً إلى حلم هيلة .

وحلمى المروى فى ص ٢٥٦ ، الذى رأيتنى فيه أنهب السلم نهباً ثم لا ألبث أن أتسمر على درجاته كان أيضاً حلماً استعراضياً لأنه يحمل الأمارات الجوهرية على ذلك . ولا بد إذن من أن يكون فى الوسع تأثره إلى ذكريات وقعت فى الطفولة ، ومعرفة هذه الذكريات بدورها لا بد أن تعيننا على أن نقدر إلى أى مدى أعان مسلك الخادم إزائى — وأعنى تقريعها إياى على توسيخ السجادة — على أن تجد لها محلا فى الحلم . والواقع أننى أستطيع أن آتى بالإيضاح المطلوب : إن التحليل النفسى يعلم المرء أن يفسر التقارب فى الزمن بالترابط فى المضمون [أنظر القسم ج من الفصل السادس ، ص ٣٢٤] . فإذا تعاقبت فكرتان على غير رباط ظاهر كان ذلك دليلا على أنهما تنتميان إلى كل واحد ينبغى الكشف عنه ، كما أنك إذا كتبت أ ثم أردفت بها ب وجب النطق بهما مقطعاً واحداً : أب ، والأمر كذلك إذا وقع الترادف فى الحلم . وحلم السلم هذا قد اخترته من بين سلسلة من الأحلام ألمت بمعناها بعد تفسيرها . وهو إذن يعالج ذات الموضوع من غير شك . وأقول الآن : إن هذه الأحلام كانت تقوم على ذكرى مربية عهد بى إليها فى فتره ما، امتدت من

زمن الرضاعة إلى أن بلغت السنتين والنصف ، ولا زالت أحفظ فى الشعور ذكرى غامضة عنها. وقد كانت هذه المرأة — على حسب ما علمته أخيراً من أمى — عجوز ، قبيحة ، لكنها كانت ماهرة ، قديرة . ثم هى لم تكن — بحسب النتائج الذى يجوز لى استخلاصها من أحلامى — تعاملنى دائماً ألطف المعاملة ، وأظنها كانت تسمعنى خشنا إذا قصرت فى بلوغ المستوى المطلوب من النظافة . وهكذا حتى للمخادم — وقد أخذت على عاتقها من جديد متابعة تلك المهمة التربوية — أن تعامل فى الحلم كما لو كانت نسخة جديدة من عجوز ما قبل التاريخ . ونستطيع أن نفترض بالطبع أن الطفل كان يهدى حبه إلى من لقنته هاته الدروس على الرغم من سوء معاملتها[1].

(ب) أحلام موت الأحياء

وهناك طائفة أخرى من الأحلام تصح تسميتها أحلاماً نمطية ، هى تلك التى يرد فى محتواها أن حبيباً قد مات ، كأحد الوالدين أو الإخوة أو الأبناء . وعلينا أن نبادر بالتفرقة بين طبقتين من هذه الأحلام : الواحدة هى التى يظل الحالم فيها دون أن يحرك الموت فى نفسه شيئاً ، حتى ليدهش — إذا استيقظ — لجمود حسه ، وأما الأخرى فيحزن فيها الحالم للموت حزنا عميقاً ، حتى ليدفق دمعه غزيرا وهو نائم .

ولنا أن نترك الطائفة الأولى من هذه الأحلام ، إذ ليس هناك ما يخول لها أن تعد أحلاماً نمطية ، لأننا نجد إذا حللناها أنها تعنى شيئاً آخر غير ما تحويه ، وأنها قد جاءت لكى تستر رغبة أخرى من الرغبات . ومثال ذلك حلم الخالة التى رأت ابن أختها الوحيد مسجى أمامها (ص١٧٨) : فهذا الحلم لم يكن يعنى أنها كانت تريد الموت لابن أختها

---

(١) وها هو ذا تفسير آخر : لما كان "Spucken" [: البصق ويعنى أيضاً الولاية أو التسلط حين يقالان للأرواح] من مهام الأرواح ، فإن "Spucken" [بمعنى البصق] على السلم ، يذهب بالذهن — من طريق ترجمة واهية — إلى : "Esprit d'escalier" [تعبير فرنسى ترجمته الحرفية : " روح السلم" ، ويعنى بطء البديهة عند الرد ، من كونك لا يسعفك الجواب ثم تجده " وأنت نازل على السلم "] . وهذا التعبير يعدل ضده فى الألمانية قولنا : "Schlalgfertigkeit" [ومعناه الحرفى: التأهب للضرب] وهو استعداد لا أرى إلا أنه ينقصنى . ولكن أتراه كان ينقص مربيتى ؟ [يشير فرويد إلى هذه المربية فى نهاية الفصل السابع من كتاب " سيكوباثولوجية الحياة اليومية " ويتحدث عنها بمزيد من التفصيل فى خطابين إلى فليس : ٧٠ ، ٧١ (فرويد ١٩٥٠ أ) .]

الصغير ، كل ما هناك — كما رأينا — هو أن الحلم كان يخفى رغبة فى أن ترى بعد طول قطيعة شخصاً حبيباً إليها ، هذا الشخص عينه الذى سبق لها لقاؤه مرة — بعد انقطاع دام كذلك طويلا — بجوار ابن أختها الآخر وهو راقد فى نعشه . ولم يكن من شأن هذه الرغبة التى كانت تكون محتوى الحلم الحقيقى أن تثير حزناً ، وعلى ذلك لم يكن فى الحلم حزن . فنحن نلحظ هنا أن الشعور الذى أحست به الحالمة لم يكن يتعلق بمحتوى الحلم الظاهر بل بالباطن ، وأن محتوى الحلم الوجدانى قد سلم من التشويه الذى أصاب محتواه الفكرى .

ولكن الأمر يختلف فى تلك الأحلام التى يتخيل فيها الحالم موت قريب حبيب ، ويألم لذلك وجدانه : هذه الأحلام — كما يتحدث به محتواها — تعنى الرغبة فى موت الشخص المقصود . ولما كنت أتوقع هنا أن تثور مشاعر قرائى كافة ، هم وكل من وقع له مثل هذا الحلم ، لم يكن بد من أن أحاول إقامة دليلى على أوسع أساس ممكن .

لقد ناقشنا من قبل حلما علمنا منه أن الرغبات التى يصور الحلم تحققها لا تكون دائماً بنت يومها ، بل هى قد تكون أيضاً رغبات ماضية ، مهجورة ، مدفونة ، مكبوتة ، لا يحملنا على أن ننسب إليها نوعاً من الوجود المستمر سوى رجوعها إلى الانبعاث فى الحلم . فهى — تلك الرغبات — ميتة ، لا كالموتى فى تصورنا ، بل كأشباح الأوديسا التى لا تلبث أن تبعث إلى الحياة حين تلغ الدم . فحلم الطفلة الميتة فى صندوقها (ص ١٨٠) كان يتصل برغبة كانت منذ خمسة عشر عاماً رغبة حاضرة وكانت الحالمة إذ ذاك تعلنها سافرة. ولا أظنه أمراً يخلو من القيمة بالنسبة إلى نظرية الأحلام أن أضيف أن هذه الرغبة كانت تقوم هى أيضاً على ذكريات من ذكريات الطفولة : ذلك أن الحالمة قد سمعت فى طفولتها — دون أن تدرى متى تحديداً — أن أمها قد افترسها فى أثناء الحمل الذى كانت هى ثمرته انقباض شديد ، وأنها ودت ودا حارا لو أن الطفل قد مات وهو جنين . فلما كبرت الحالمة وصارت حاملا ، لم تفعل إلا أن حذت حذو أمها .

فإذا حلم البعض وهو يفصح عن كل علائم الألم أن أباه أو أمه أو أخاه أو أخته قد مات ، لم أفكر على الإطلاق فى أن أقيم من هذا الحلم دليلا على أن الحالم يريد اليوم موت هذا القريب . فنظرية الحلم لاتقتضى كل هذا ، بل تقنع بالانتهاء إلى أنه — أعنى الحالم — قد اشتهى هذا الموت فى فترة أو أخرى من فترات الطفولة . غير أننى أخشى ألا

يفلح هذا التحفظ فى تسكين المعترضين ؛ فهؤلاء سوف ينكرون احتمال أن تكون مثل هذه الفكرة قد طرأت لهم يوماً بمثل القوة التى ينكرون بها أن تكون تلك رغبتهم اليوم . وعلى ذلك لا يكون مفر من أن أبعث من جديد بعض ما غبر من حياة الطفولة النفسية استناداً إلى شهادة الحاضر (١) .

دعنا ننظر بادئ ذى بدء فى علاقة الطفل بإخوته . لست أدرى لماذا نفترض مقدماً أن هذه العلاقة لا بد أن تكون حباً . فمن ذا الذى لم ير بين الراشدين شواهد على شقاق الإخوة ؟ وكم يتاح لنا التحقق من أن هذا الشقاق قد تأصل فى الطفولة وأنه لم ينقطع يوماً ! أضف إلى ذلك أن كثيراً من الراشدين الذين تربطهم اليوم بإخوتهم أواصر المودة وينصرونهم عند الشدة كانوا فى طفولتهم يعيشون وإياهم على عداوة لا تكاد تلين . فالأكبر كان يسيء إلى الأصغر ويقهره ويسلبه لعبه ، فى حين يضوى الأصغر مما به ، من غيظ العاجز المقهور . فهو يحسد أخاه الأكبر ويخشاه أو قد يستدير إلى مضطهده فيواجهه بأوائل ثوراته محبة للحرية وشعوراً بالعدل. هذا بينما يردد الوالدان أن أبناءهم لا يصطلحون ، دون أن يعرفوا لذلك سبباً . ولا يصعب أن نرى أن الطفل ولو كان حسن الطبع لا يحقق كل ما نأمل فى رؤيته عند الراشد . فالأطفال أنانيون مطلقوا الأنانية ، وهم يشعرون بحاجاتهم شعوراً بالغ الشدة ، ويجهدون فى إرضائها غير حاسبين لما عداها حساباً ، وبخاصة فى وجه الغرماء من سائر الأطفال ، ومن الإخوة فى المحل الأول . غير أننا لا نقول من أجل ذلك : إن الطفل « شرير » بل نصفه « بالرداءة » ؛ فهو لا يسأل عن سوء فعاله ، فى نظرنا كما فى نظر القانون . ومن العدل أن تكون الأمور كذلك ؛ فلنا أن نتوقع أن تستيقظ قبل ختام تلك الفترة المسماة طفولة نزعات غيرية ، وأن تستيقظ الأخلاق ، أو أن يأتى أنا ثان — بتعبير ماينيرت — فيغطى الأول ويكفه . ومن المحقق أن الأخلاق لا تظهر فى كل النواحى فى وقت واحد ، وأن مرحلة الطفولة اللاخلقية يتفاوت طولها بتفاوت الأفراد . فإن وقف هذا التخلق عن النمو ، أحببنا الحديث عن « الانحلال » بينما الواضح أننا نواجه كفا فى النمو . وأما بعد أن يغطى النمو اللاحق الطبع الأول ، فقد يعرى هذا الطبع ثانية ، على الأقل إلى حد فى حالات المرض الهستيرى . والحق أن الشبه عجيب بين ما ندعوه الطبع الهستيرى وبين رداءة الأطفال . وأما العصاب القهرى فيوافق

---

(١) أنظر " تحليل مخافة شاذة عند طفل فى الخامسة " (فرويد ١٩٠٩ ب) . وكذلك مقالى فى " بعض النظريات الجنسية عند الأطفال " (١٩٠٨ ج) .

على العكس تخلقاً مفرطاً أريد به تعزيز القدرة على مغالبة ما يتحرك من جديد من الطبع الأول .

هناك إذن قوم كثيرون ممن يحبون اليوم إخوتهم ويستشعرون فداحة الفقدان لو قد حق عليهم الموت ، وهم مع ذلك يضمرون لهم فى لا شعورهم رغبات خبيثة من العهد الأول قادرة على أن تتحقق فى الحلم . ولكن الذى يفيدنا هنا أكبر الفائدة هو أن نلحظ مسلك صغار الأطفال إلى سن الثالثة أو الرابعة تجاه من يصغرونهم من أشقائهم وشقيقاتهم ؛ لقد ظل الطفل حتى ذلك الحين وهو الطفل الأوحد ، وها هو ذا يعلم اليوم أن اللقلق قد أتى بطفل جديد : إنه لينعم النظر فى هذا الوافد الصغير ثم يعلن فى عزم . « ليعد به اللقلق من حيث أتى [١] » .

وإنى لأعتقد وأنا جاد تمام الجد أن الطفل يعرف كيف يقدر تقديراً صائباً كل ما ينتظره على يد الدخيل الصغير . وها هى ذى سيدة من معارفى تربطها اليوم أحسن الروابط بأختها التى تصغرها بأربعة أعوام — تخبرنى أنها قد تلقت نبأ وفادة أختها لأول مرة بهذا التحفظ : « ولكننى لن أعطيها معطفى الأحمر مهما يكن! » ومن هذا التاريخ تبدأ عداوة الطفل ولو لم يدرك موقفه إلا فيما بعد . وأعرف طفلة لما تبلغ الثالثة حاولت أن تخنق رضيعاً فى مهده لأنها لم تستبشر بمحضره خيراً . والغيرة فى هذا الوقت من الحياة شىء يستطيعه الأطفال بكل شدته ووضوحه . وهب الأخ الصغير أو الأخت قد خلى مكانه بالفعل عاجلا ، وعاد الطفل يحتكر كل عطف المنزل ، ثم يأتى اللقلق بوافد جديد : أليس من المنطق أن يضمر طفلنا المدلل الرغبة فى أن يلقى منافسه الجديد مصير سابقه حتى تسير الأمور بما يشتهى ، شأنها فى البدء وفيما بين الفترتين [٢] . ومن الطبعى أن يتفاوت مسلك الأطفال هذا تجاه من يولد بعدهم بتفاوت الأعمار . فقد يحدث إذا بلغ الفرق فى السن حدا معيناً أن تستثار فى الأخت الكبرى أول بشائر الغريزة الأمومية تجاه هذا الوليد الذى لا عون له .

---

(١) وهانس البالغ من العمر ثلاثة سنوات ونصف السنة والذى كانت مخافته الشاذة موضوع التحليل المشار إليه فى الهامش السابق — قد صاح وهو محموم حين ولدت أخته : ولكننى لا أريد أختا صغيرة . ثم هو قد أعرب صراحة فى أثناء عصابه — بعد ذلك بثمانية عشر شهرا — عن رغبته فى أن تلقى أمه الطفلة فى حجرة الاستحمام حتى تموت . ومع هذا كان هانس ولدا حسن الطبع ، عطوفا ، سرعان ما شغف بأخته الصغرى وشغف على الأخص بحمايتها .

(٢) إن حالات الموت التى يعاصرها الطفل على هذا النحو أمر قد تسارع العائلة إلى نسيانه ولكن البحث التحليلى النفسى يرينا أن لها أهمية قصوى فى العصاب الذى يجىء من بعد .

وما من شك فى أن مشاعر العداوة بين الإخوة تزيد فى سن الطفولة كثيراً عما يلحظه منها الراشدون الغافلون [١] .

ولقد ضيعت فيما يتعلق بأبنائى الذين تتابعوا الواحد إثر الآخر فى تعاقب سريع فرصة إتيان مثل هذه الملاحظات . ولكننى أدرك اليوم ما فاتنى مع ابن أخت صغير جاءه غريم أنثوى فأدخل الاضطراب على حكمه المطلق بعد أن دام خمسة عشر شهراً . نعم ، لقد سمعت أن الشاب الصغير يسلك بإزاء أخته مسلكاً جد كريم ؛ فهو يقبل يديها ويلاطفها . بيد أننى رأيت ما يقنعنى بأنه قد أخذ — ولما يكمل الثانية — فى استخدام قدرته اللغوية فى نقد هذا المخلوق الذى لم يكن يبدو إلا نافلة : فهو كلما دار الحديث عنها أقحم نفسه وصاح متأففا : « صغيلة جداً ، صغيلة جدا ! » ولما ترعرت الطفلة فى الشهور الأخيرة وصارت من الكبر بما يرفع عنها هذه الزراية ، التمس صاحبنا سنداً جديداً لزعمه أنها لا تستحق كل هذه الرعاية ، فلا تسنح فرصة إلا ذكرنا بأنها لا أسنان لها [٢] . ولا تزال أسرتنا جميعها تذكر عن البنت الكبرى لأخت لى أخرى كيف أخذت مرة — وكانت فى السادسة — تلح ساعة كاملة على جميع عماتها ، تسألهن لكى يؤيدنها : « إن لوسى لا تستطيع أن تفهم ذلك بعد ، أليس كذلك ؟ » وكانت لوسى منافستها التى تصغرها بعامين ونصف العام .

ولم أجد — مثلا — بين جميع مريضاتى مريضة واحدة أخطأها هذا الحلم الدال على أقصى العداوة : بموت أخ أو أخت . لم أجد إلا استثناء واحدا لم يصعب تفسيره بما يؤيد القاعدة . فقد كنت أشرح هذا الوضع لإحدى السيدات فى خلال جلسات تحليلية لأنه بدا لى ذا حساب يحسب فى العرض الذى كان مطروحاً على بساط البحث فى ذلك

---

(١) إن ملاحظات لا يحصرها العد عن عداوة الأطفال فى المبدأ نحو إخوتهم وأحد والديهم قد لوحظت وسجلت فى المؤلفات التحليلية منذ أن خطت هذه السطور . ولكن الشاعر [السويسرى] شبيتلر قد صور لنا هذا المسلك الطفلى النمطى تصويرا فريدا فى صدقه وسذاجته استمده من طفولته : " وكان هناك عدا ذلك — أدولف ثان : مخلوق صغير زعموا أنه أخى وإن كنت لا أفهم كثيراً وجه النفع منه ، وأفهم أقل لم يحفلون له مثلما يحفلون لى أنا . لقد كانت نفسى تكفينى ، فما حاجتى لأخ ؟ وليته كان عديم النفع وحسب ! بل هو يزيد أحياناً فيصير عقبة : فإذا عاكست جدتى أراد أن يعاكسها مثلى ، وإن خرجت للنزهة جلس قبالتى ، فلا يكون مناص من أن نتضارب بأقدامنا . »

(٢) وهذه الكلمات عينها قد استعارها أيضاً هانس الصغير وهو فى الثالثة والنصف من عمره فى فقده الجارف لأخته الصغيرة (ذات المرجع) . وكان يقدر أن عجزها عن الكلام راجع إلى افتقارها إلى الأسنان .

اليوم ، وإذا هى تجيبنى لدهشى أنها لم تر مثل هذا الحلم قط . غير أن حلماً يبدو منقطع الصلة بالموضوع طرأ ببالها ، وهو حلم أتاها فى الرابعة — وكانت إذ ذاك أصغر أفراد الأسرة — ثم عاودها بعد ذلك تكراراً : جمع من الأطفال — كلهم من الإخوة والأقارب ، صبية و بنات — يزحفون فى حقل ثم فجأة ظهرت لهم أجنحة ، فطاروا كلهم ثم اختفوا . ولم تكن الحالمة تملك أقل فكرة عن هذا الحلم. ولكن من السهل علينا أن نعرف أنه فى صورته الأصلية التى لم تغير منها الرقابة إلا قليلا حلم بموت إخوتها وأخواتها جميعاً . وأجازف إلى افتراض التحليل الآتى : عندما مات أحد هؤلاء الأطفال — وكانت الحالمة وإخوتها قد نشئوا هم وأولاد عم لهم فى أسرة واحدة — اتجهت الحالمة — ولما بلغت الرابعة — إلى أحد الكبار العاقلين تسأله : ما الذى يحدث للأطفال حين يموتون ؟ ولا بد أنه أجابها : تنمو لهم أجنحة ويصبحون ملائكة صغارا . ونحن نرى فى الحلم الذى أعقب هذه الإفادة أن إخوة الحالمة قد صارت لهم جميعاً أجنحة كالملائكة وأنهم — وهنا المهم — قد طاروا بعيداً، ولم يبق سوى صغيرتنا صانعة الملائكة [1] ، وتأمل : إنها الباقية الوحيدة من الحشد كله ! وأما أن يزحف الأطفال فى حقل قبل طيرانهم فهو ما لا نكاد نجانب الصواب إذ نرى فيه إشارة إلى الفراشات ، وكأنما كانت الطفلة مسوقة بذلك التداعى الفكرى الذى ساق القدامى إلى أن يصوروا الروح فى صورة فراشة ذات أجنحة .

وهنا قد يعترض البعض قائلا : « نسلم بأن الأطفال عرضة لدفعات عدائية نحو إخوانهم ، ولكن أنى لقلب الطفل أن يبلغ من الفساد إلى تلك القمة ، حتى ليشتهى موت من نافسه أو قوى عليه من رفاق اللعب ، كأنما كان لا يعرف غير الموت عقاباً لكل جريمة ؟ » بيد أن قائل مثل هذا الكلام ينسى أن فكرة الطفل عن « الموت » لا تحمل — بعد اللفظ — إلا أقل الشبه بفكرتنا نحن . فما يعلم الطفل شيئاً من شناعة الفساد ، ومن الرعدة فى قبر بارد كالثلج ، ومن هول العدم الأبدى — وكلها أمور قلما احتمل الكبار تصورها ، دليل ذلك كل الأساطير المنسوجة حول العالم الآخر . فالخوف من الموت غريب عن الطفل ، ومن ثمت كان لعبه بالكلمة الهائلة والتجاؤه إليها لكى يهدد بها أحد الرفاق : « ستموت لو عدت إلى ذلك مثلما مات فرانتس » .

---

(١) [صانعة الملائكة تعبير يقال للقابلة التى تزاول عمليات الإجهاض — من كونها تقتل الأولاد ولما يولدوا فيصيرون ملائكة .]

وتسرى الرعشة فى الأم المسكينة ، ولعلها لا تستطيع أن تنسى أن الشطر الأكبر من البشر مواليد الأرض لا تتجاوز حياتهم سنى الطفولة . بل لقد يبلغ الطفل الثامنة ثم لا يزال قادراً على أن يقول لأمه وقد عاد إلى المنزل من جولة فى متحف التاريخ الطبيعى : « ماما ، ما أكثر حبى لك ! إذا مت فسأجعلهم يحشونك ، وسأضعك هنا ، فى هذه الغرفة ، حتى أستطيع رؤيتك دائماً ، دائماً . » إلى هذا المدى يختلف الطفل منا فى تصوره للموت [١] .

ولما كان الطفل يجنب فوق ذلك مشاهدة آلام الاحتضار ، فالموت عنده يعنى إلى حد كبير « الغياب » ، الكف عن إزعاج الأحياء المتبقين . وهو لا يميز بين أسباب هذا الغياب ؛ أسفر أم طرد أم غربة أم موت [٢] . فلو أن طفلا طردت مربيته وهو مازال بالمرحلة قبل التاريخية ثم ماتت أمه بعد ذلك بقليل ، لتطابق الحدثان فى ذهنه وكونا سلسلة واحدة — كما يكشف عنه التحليل . وأما أن الطفل لا يفتقد الغائب كثيراً فهذا ما تعلمه الكثيرات من الأمهات لحسرتهن حين يعدن إلى دورهن بعد أسابيع قضينها فى إجازة الصيف فيقابلن بهذا النبأ : أن الأطفال لم يسألوا عن أمهم مرة واحدة . فإن ذهبت الأم حقيقة إلى هذه « الأرض المجهولة التى لا يعود منها راحل » بدا على الطفل للوهلة الأولى أنه نسيها ولم يأخذ إلا من بعد فى تذكر موتها .

وهكذا إذا رأى طفل ما يدعوه إلى أن يتمنى غياب شخص آخر ، فليس ما يمنعه من أن يلبس أمنيته هذه لبوس الرغبة فى الموت ، كما أن الاستجابة النفسية إلى الأحلام

---

(١) لقد أدهشنى أن أسمع ولدا فى العاشرة عالى الذكاء وهو يقول على أثر وفاة والده وفاة مفاجئة : " إنى أفهم أن يكون والدى ميتا ، ولكنى لا أرى لم لا يحضر إلى المنزل للعشاء . " ويجد القارئ مادة أخرى تتصل بهذا الموضوع فى الباب الذى تشرف على تحريره الدكتورة هـ . فون هوج - هلموت تحت عنوان " نفس الطفل " بمجلة Imago ، المجلدات ١ — ٥ ، ١٩١٢ — ١٩١٨ .

(٢) أتى أحد الآباء ممن لهم إلمام بالتحليل النفسى ملاحظة أرته اللحظة التى أدركت فيها ابنة له فى الرابعة على نمو عقلى كبير ما هو الفرق بين " الموت " و " البعد " . ذلك أنها سلكت على المائدة سلوكاً مزعجا بعض الشىء وأحست أن إحدى الخادمات تنظر إليها فى غير استحسان فأعربت لوالدها عن شعورها قائلة : " أود لو ماتت جوزفين ! " فسألها والدها مهدئا : " ولم الموت ؟ ألا يكفى أن تبعد ؟ " فأجابت الطفلة : " كلا ، وإلا عادت ثانية . " إن محبة الذات المطلقة عند الأطفال (النرجسية) تجعلهم يرون فى كل تدخل جريمة مساس بالذات الملكية ، ومشاعرهم — مثل قوانين دراكون — لا تعرف لكل جريمة من هذا القبيل إلا تلك الصورة من العقاب التى لا تحتمل وسطا .

المنطوية على رغبات فى الموت ترينا أنه مهما تنوع محتوى هذه الرغبات عند الطفل فهى تعنى مع ذلك على نحو من الأنحاء ما تعنيه نظيراتها عند الراشدين .

ولكن إذا كانت رغبة الطفل فى موت إخوته وأخواته تجد ما يفسرها من أنانيته التى تجعله يرى فى هؤلاء منافسين له ، فكيف نفسر رغبته هذه تجاه والديه اللذين يمنحانه الحب ويقضيان له حاجاته واللذين كان يخلق بأنانيته تلك أن تدعوه إلى اشتهاء بقائهما ؟

هذه صعوبة يهدينا إلى حلها ما نلحظه من أن الحلم بموت الوالدين يصيب فى الغالبية الغالبة من كان من الزوجين الوالدين يشارك الحالم جنسه ؛ فالرجل يحلم فى الأغلب بموت الأب وتحلم المرأة بموت الأم . ولست أستطيع أن أدعى لتلك القضية عموم القاعدة ، ولكن غلبة الاتجاه الذى أشير إليه بينة إلى حد يتطلب تعليلها بعامل ذى قيمة كلية كذلك[1] : إن الأمور تجرى — إذا تركنا كل تعبير مخفف — كما لو كان ثمت إيثار جنسى يستشعره الطفل وهو فى باكورة الحياة ، كما لو كان الصبى يرى فى أبيه — والفتاة فى أمها — غريماً لن يصيبه من إزاحته غير النفع .

وإنه ليجدر بنا هنا أيضاً — قبل أن ننبذ هذه الفكرة معتبرين إياها فكرة شنعاء — أن نكثب النظر إلى العلاقات الحقيقية بين الوالدين والأبناء . وعلينا بنوع خاص أن نفرق بين تلك العلاقة كما يريدها واجب التقوى البنوية الذى يقتضيه العمران وبين ما يتكشف بالملاحظة اليومية أنه واقع تلك العلاقة : إن وراء العلاقة بين الوالدين والأبناء لأكثر من مناسبة من مناسبات العدواة ، وإنها لعلاقة تزدحم فى وفرة ما بعدها وفرة بكل العوامل التى تبعث على رغبات لا يمكن أن تواجه الرقابة . ولنقفن بادئ ذى بدء على العلاقة بين الأب والابن : إنى أعتقد أن القداسة التى أسبغناها على ما سنته الوصايا العشر من نواه قد أعمت أبصارنا عن إدراك الحقيقة الواقعة . ولعلنا لا نكاد نجرؤ على ملاحظة أن الشطر الأعظم من أبناء النوع الإنسانى يخرجون عن طاعة الوصية الرابعة[2] . فتقوى الأبناء نحو آبائهم — فى أسفل مراتب المجتمع كما فى أعلاها — تطغى عليها عادة مطامع أخرى . والبلاغ الحالك الذى ينحدر إلينا عبر الملاحم والأساطير عن العصور الأولى للمجتمع

---

(١) [١٩٢٥ :] إن الغموض كثيرا ما يشمل هذا الموقف لظهور دافع عقابى يهدد الحالم بموت من يحب من الوالدين على سبيل الجزاء الخلقى .

(٢) [« أكرم أباك وأمك لكى تطول أيامك على الأرض التى يعطيك الرب إلهك . » (خروج ، ٢٠)]

الإنسانى يرينا ما لا تطرب له النفس من مطلق سلطان الأب ومن قساوته فى مزاولة هذا السلطان . فكرونوس قد التهم أبناءه مثلما يفعل الخنزير الوحشى بخلف أنثاه ، وجاء زوس فأخصى أباه [١] ونصب نفسه سيداً فى مكانه . وكلما خلا سلطان الأب فى العائلة من كل قيد ، وجد الابن نفسه بالضرورة — وهو الوريث المنتظر — فى موقف العدو من أبيه ، ونفد بالضرورة صبره وهو يترقب الظفر بالسيادة عبر موت أبيه . ولا يزال الأب فى طبقتنا المتوسطة يأبى على ابنه الاستقلال ويأبى عليه العدة لبلوغه ، متعهداً بذلك بذور العداوة التى تكمن بطبيعتها فى هذه العلاقة . وكثيراً ما يتاح للطبيب أن يلحظ كيف يعجز حزن الابن لفقد أبيه عن قمع فرحه إذ يظفر أخيراً بحريته . وكل أب يتشبث اليوم يائسا بما يتبقى فى عصرنا من « سلطة لرب العائلة » [٢] صارت إلى قدم لا يذكر بالخير ، وكل كاتب — مثل إبسن — يبرز هذا الصراع الأزلى بين الآباء والأبناء إلى مكان الصدارة من كتاباته فله أن يكون على ثقة من أنه محدث فى النفوس أثراً . وأما البنت وأمها فتنشأ فرص النزاع بينهما حين تشب البنت فترى فى أمها رقيباً عليها ، على حين تطمح هى إلى الحرية الجنسية ، هذا بينما ترى الأم من ناحيتها فى تفتح ابنتها نذيراً ينذرها أن قد حان وقت النزول عن مطالبها الجنسية .

كل هذا ظاهر يملأ أعين الجميع . لكنه لا يعيننا على ما نستهدفه من تفسير الأحلام بموت الوالدين عند أناس رسخت تقواهم نحو والديهم رسوخاً وطيداً منذ زمن طويل . أضف أن المناقشات السابقة قد أعدتنا لأن نعلم أن رغبة الموت تجاه الوالدين تنبعث جذورها من الطفولة الأولى .

إن هذا الفرض يتأيد تأييداً لا يتطرق إليه أدنى شك بالنسبة إلى العصابيين الذين يأخذون فى التحليل النفسى . فنحن نعلم عندئذ أن رغبات الطفل الجنسية — إذا كانت هذه الرغبات تستحق هذا الوصف وهى لا تزال فى طورها الجنينى — تنشأ منذ وقت مبكر ، وأن أول نزوع الفتاة يكون لأبيها كما تتجه رغائب الولد أول ما تتجه إلى أمه ،

---

(١) أو ذلك ما ورد فى بعض الأساطير . وفى روايات أخرى أن الإخصاء إنما أوقعه كرونوس على أبيه أورانوس . ولمعرفة المغزى الأسطورى الذى لهذه المسألة اقرأ رانك ، ١٩٠٩ ، وكذلك رانك ١٩١٢ ج ، الفصل التاسع ، القسم الثانى .

(٢) [potestas patris familialis ، الإشارة هنا إلى نظام العائلة الرومانية وسلطة الأب فيها .]

وبذلك يصبح الأب للولد — مثل الأم للبنت — مزاحماً مزعجاً ، ولقد رأينا من قبل — فيما يتعلق بالإخوة — كيف يكفى الشىء القليل من مثل هذا الشعور فى سوق الطفل إلى اشتهاء الموت للغريم . ويظهر مثل هذا الإيثار عادة عند الوالدين كذلك ؛ فهناك نسبة طبيعية ترعى الأمور بحيث يدلل الزوج ابنته الصغيرة وتأخذ زوجه جانب الابن ، بينما يعمل كلاهما — هذا إذا لم يفسد حكمتهما سحرُ الجنس — على تنشئة صغارهما تنشئة دقيقة . ويلحظ الطفل هذا الإيثار تمام الملاحظة وينقلب على الجانب الذى يعارضه من الزوجين الوالدين ؛ فالحظوة بحب الراشد لا تشبع حاجة بعينها من حاجات الطفل وحسب ، إنها تعنى بنوع أخص أن رغبته مجابة فى كل ناحية أخرى من النواحى . وهكذا يتبع الطفل دافعه الجنسى ويزيد فى الوقت عينه نزوع والديه حدة جديدة ، حين يتفق اختياره بينهما واختيارهما .

ومن عادتنا أن نغض النظر عن معظم علائم هذه النوازع الطفلية ، بيد أننا نستطيع مع ذلك أن نلحظ بعضها حتى بعد انقضاء السنوات الأولى من الطفولة : فأنا أعرف فتاة فى الثامنة لا يدعو أمها داع إلى المغيب عن المائدة دون أن تنتهز الفرصة لتعلن أنها قد خلفتها : «سأصبح أنا ماما الآن . كارل ، أتريد مزيداً من الخضر ؟ خذ بعضا من فضلك ! » وهكذا . ولقد شفّت هذه الناحية من سيكولوجية الطفل شفافية خاصة عند طفلة فى الرابعة على جانب ملحوظ من الحيوية والذكاء ، كانت تقول : « الآن تستطيع ماما أن تذهب ، وسيتزوجنى بابا بعد ذلك على التأكيد . وأصبح أنا زوجه » — هذا دون أن تتنافى هذه الرغبة عند الطفلة مع حبها أمها حباً ملؤه الحنان . وإذا أبيح لطفل أن ينام إلى جانب والدته ووالده مسافر ثم أعيد مكرها فور رجوعه إلى غرفته المعتادة حيث ينام مع شخص آخر لا يحبه إلا حباً يقل كثيراً عن حبه لأمه ، كان من السهل أن تنشأ عنده الرغبة فى أن يظل والده غائباً على الدوام حتى يتمكن من استبقاء أمه الحبيبة الجميلة على الدوام . وجلى أن من الوسائل إلى ذلك أن يصبح الأب فى عداد الأموات ؛ فقد علم الطفل من تجربته شيئاً : هو أن الموتى يظلون دائماً على غيبتهم — مثل جده — ولا يرجعون منها إلى أبد الآبدين .

هذه الملاحظات قبل الأطفال الصغار وإن وافقت التفسير الذى أقترحه دون أن نحملها مالا تحتمل ، لا تجلب مع ذلك مطلقاً هذا الاقتناع الكامل الذى يفرضه على

الطبيب تحليل الكبار الراشدين . فالأحلام التى نحن فى صددها ترد هنا مصحوبة بمقدمات يستحيل معها تجنب تفسيرها بغير كونها أحلام رغبة . ولقد وجدت يوماً إحدى مريضاتى مكتئبة دامعة وقالت المريضة لى : « إننى لا أريد أن أرى أقربائى أبدا ، لا بد أنهم يرتعدون منى فرقاً . » ثم أردفت تقول — من غير ما صلة تقريباً — : إنها تذكر حلماً من أحلامها ، وإن تكن بالطبع لا تفقه شيئاً من معناه . هذا الحلم قد أتاها فى الرابعة ، وهذا هو نصه : يجول فهد أو ثعلب[1] على سطح البيت ، عندئذ يسقط شىء من أعلى ، أو هى نفسها قد سقطت ، ثم تحمل أمها ميتة إلى خارج المنزل — وهنا تنحب الحالمة نحيباً موجعاً . وما كدت أخبرها أن هذا الحلم لا بد يعنى رغبة أضمرتها وهى طفلة فى أن ترى أمها ميتة وأن هذا الحلم ولا شك هو الذى جعلها تظن أن أقرباءها يرتعدون منها فرقاً ، حتى أسلمتنى مادة ألقت على الحلم الضوء : ذلك أن « عين الفهد » شتيمة رماها بها ولد من أولاد الأزقة وهى لا تزال صغيرة جداً ، ثم إن حجرا قد سقط من السطح وهى فى الثالثة والنصف فأصاب رأس أمها وأدماها غزيرا .

وأتيح لى مرة أن أدرس درساً وافياً فتاة مرت بحالات نفسية متقلبة : فقد بدأ مرضها بحالة من الهيجان الخلطى ، كانت تبدى فى خلالها نفورا بالغ الشدة من أمها ، تضربها وتشتمها كلما اقتربت من سريرها ، بينما ظلت فى الوقت عينه على حبها وانطياعها لأخت تكبرها كثيراً ، ثم أعقبت هذه حالة من صفاء الذهن ، وإن صاحبها شىء من الخمود الانفعالى مع اضطراب فى النوم . وفى هذه المرحلة أخذت فى علاجها وتحليل أحلامها ، وكان عدد عظيم منها يدور — على نحو يزيد أو ينقص استخفاء — حول موت أمها : فهى طورا تشترك فى تشييع جنازة امرأة عجوز ، وطوراً آخر تجلس مع أختها إلى المائدة وقد ارتديتا ثياب الحداد — بحيث لم يعد هناك أقل مجال للشك فى معنى هذه الأحلام . فلما زادت حالها تحسناً أخذت مخاوف هستيرية فى الظهور . وكان أشد هذه المخاوف تعذيباً لها الخوف من أن تصاب أمها بمكروه ؛ فكانت — حيثما كانت — تضطر إلى أن تعجل بالعودة إلى المنزل ، حتى تقتنع بأن أمها لا تزال حية ترزق . هذه الحالة — هى وتجاربى الأخرى مجتمعة — قد علمتنى الشىء الكثير ؛ فهى قد أرتنى — فيما يشبه الترجمة إلى لغات مختلفة — تنوع الطرق التى يستجيب بها الجهاز النفسى إلى فكرة

---

(١) [هناك جناس شديد بين اسمى هذين الحيوانين فى الأصل : Luchs و Fuchs .]

مهيجة : فى حالة الهيجان — التى أتصورها على أنها طغيان النظام النفسى الأول الذى يظل فى العادة مكبوتاً على النظام النفسى الثانى — يجد العداء نحو الأم متنفساً حركياً قويا ، فلما أخذت الحالة فى الهدوء وقمعت الثورة واستتب سلطان الرقابة من جديد ، لم يبق لعداوتها من مجال مفتوح غير مجال الحلم تحقق فيه رغبتها فى موت أمها ، ولما قويت الحالة السوية بعد ذلك ظهر قلقها المفرط على أمها من حيث هو استجابة هستيرية مضادة وظاهرة من ظواهر الدفاع . وهنا لا يعود يغمض علينا لم كان من الشائع إلى هذا المدى أن تتعلق الفتيات الهستيريات بأمهاتهن فى تحنان زائد .

وأتاحت لى فرصة أخرى أن أسبر غور الحياة اللاشعورية عند شاب فى مقتبل العمر كاد عصابه القهرى أن يعجزه عن الحياة . فهو لم يكن يخرج إلى الطريق ؛ لأنه إذا خرج عذبه الخوف من أن يقتل كل من مر به . وكان يقضى أيامه وهو يفكر فى دليل يثبت به براءته إذا وقعت جريمة قتل فى المدينة وأخذ هو بجريرتها — وغنى عن البيان أن هذا الشاب كان على مقدار عظيم من علو الخلق والثقافة على السواء . لقد بين التحليل (وهو تحليل أدى إلى شفائه) أن أساس هذه الفكرة القهرية الأليمة كان دافعاً إلى القتل يستهدف أباه ، وكان هذا الأب على صرامة لا تخلو من بعض الغلو . ولقد أعرب المريض لفرط دهشه عن هذا الدافع إعراباً شعورياً وهو فى السابعة من عمره ، وإن كانت نشأة الدافع ترجع بالطبع إلى ما قبل ذلك كثيراً من سنى الطفولة . فلما قضى الأب بعد مرض حفل بالعذاب ركب المريض — وكان فى الحادية والثلاثين — تأنيب قهرى تحول إلى الغرباء فى صورة هذه المخافة . وكأنما كان المريض يحدث نفسه قائلا : إن من استطاع أن يرغب فى أن يدفع أباه من قمة جبل عال إلى هاوية سحيقة لا يمكن أن يؤتمن بحال من الأحوال على احترام حياة الغير ممن هم أقل قربا إليه ؛ ولهذا كان صواباً منه أن يلزم غرفته حبيساً .

وتشهد خبرتى — وهى خبرة بلغت مدى واسعاً — بأن الوالدين يقومان بالدور الرئيس فى الحياة النفسية الطفلية لكل من صار فى مستأنف حياته عصابياً . فمحبة أحد الوالدين وكراهية الآخر من المقومات الجوهرية فى خزانة الاندفاعات النفسية التى تتكون فى ذلك الوقت والتى تملك أكبر الأهمية فى تشكيل أعراض العصاب الذى يجئ بعد ذلك . بيد أننى لا أعتقد أن العصابيين يختلفون فى هذه الناحية اختلافاً جوهرياً من أولئك

الذين يظلون سويين أى أنهم يملكون القدرة على أن يخلقوا شيئاً جديداً مطلق الجدة ، خاصًّا بهم كل الخصوص . بل الذى يرجح ذلك كثيراً وتؤيده أيضاً الملاحظات العارضة عن الأطفال السويين هو أن العصابيين بمشاعرهم هذه — من حب وكره نحو والديهم — إنما يطلعوننا فى صورة مكبرة على ما يعتمل فى نفوس معظم الأطفال بوضوح أقل وشدة منقوصة . ولقد جاءتنا من الزمن القديم أسطورة لا سبيل إلى أن نفهم فعلها العميق الشامل فى النفوس إلا إذا كان الفرض الذى قدمته فى سيكولوجية الطفل صحيحاً كذلك صحة شاملة .

وأنا أشير هنا إلى أسطورة الملك أوديب وإلى مسرحية سوفوكليس التى تحمل اسمه : ولد أوديب من لايوس ملك طيبة ومن زوجه يوكاستا ، وألقى به إلى العراء وهو بعدُ رضيع ، لأن نبوءة أعلمت لايوس — وابنه ما زال بالرحم — أن ابنه هذا سوف يكون قاتله . إلا أن منقذاً أنقذه وشب الطفل وليا للعهد فى بلاط أجنبى إلى أن خامره الشك فى أصله فراح بدوره يستفسر العرافة فأنذرته إياه والإقامة فى وطنه ؛ فقد قضى عليه أن يقتل أباه وأن يأهل أمه . وبينما هو هائم على وجهه فى طريق يبعده عما يظن أنه وطنه إذا هو يلتقى بالملك لايوس فيصرعه فى قتال نشب على غرة . وأقبل بعدها إلى طيبة ، وهناك حل لغز أبى الهول [١] الذى كان يعترض الطريق إلى المدينة فنصبه الطيبيون ملكاً عليهم عرفاناً منهم بجميل صنعه ، وأهدوا إليه يد يوكاستا . وظل أوديب يحكم دهراً آمنا معززاً ، وأعقبت له أمه المجهولة منه ولدين وابنتين ، إلى أن نزل وباء فكان سبباً فى أن يذهب الطيبيون فى سؤال العرافة من جديد . وهنا تبدأ مأساة سوفوكليس : يعود الرسل بهذا البلاغ : ينقطع الوباء إذا ارتحل قاتل لايوس عن الديار . ولكن بأى أرض هو ؟

« أين نجد هذا الأثر الخفى لجريمة غابرة ؟ »

(السطر ١٠٩)

ولا تقوم المعالجة المسرحية فى شىء آخر سوى الإفضاء — إفضاء تتزايد الإثارة فى سياقة رويدا رويدا ويتم بعد تعويق ماهر ، حتى لتجوز مقارنته بسير التحليل النفسى — بأن أوديب نفسه هو هو قاتل لايوس وأنه أيضاً ولده ، منه ومن يوكاستا . ويرتاع

---

(١) [لغز أبى الهول فى أشهر صيغه هو الآتى : من ذا الذى إذا طلع النهار سار على أربع ، فإن انتصف فعلى اثنتين ، فإن ضرب إلى المغيب فعلى ثلاث ؟ والجواب هو : الإنسان — الذى يستند إلى العصا فى شيخوخته .]

أوديب لمهول ما أتى غير عالم ، فيفقأ عينيه ويهجر وطنه . وهكذا تصدق النبوءة .

« أوديب ملكا » تدخل بين ما يعرف باسم مأسويات القدر . ويقال : إن تأثيرها المأسوى يقوم فى التضاد بين مشيئة الآلهة القاهرة وبين محاولة الإنسان سدى أن يجنب نفسه الويل الذى يتهدده . ويقال أيضاً : إن الدرس الذى يخرج به من شهد المسرحية فملكته — هو الاستسلام للمشيئة الإلهية والبصر بقلة حوله . وعلى ذلك أراد المؤلفون المحدثون أن يبلغوا مثل هذا التأثير المأسوى ، فحاكوا هذا التضاد عينه فى خيال من عندهم . ولكن المشاهدين ظلوا لم يحركوا ساكناً وهم ينظرون كيف تَنْفُذُ عرافة أو نبوءة مهما بذل برىء فى دفعها ؛ إن مأسويات القدر المحدثة لم تصب وقعاً .

فإذا كانت « أوديب ملكا » تهز اليوم معاصرينا مثلما هزت من عاصرها من الإغريق ، فلا تفسير لذلك إلا أن وقعها لا يقوم على ما بين القدر وإرادة الإنسان من التضاد ، وإنما ينبغى علينا أن نلتمس سر هذا الوقع فى طبيعة المادة التى تَشَخَّص بها هذا التضاد . أو قل : إنه لا مناص من أن يكون ثمت صوت يُعِدُّنا لأن نعرف قوة القدر الطاغية فى أوديب ، على حين يسعنا الزهد فى مواقف من قبيل ما يحاك فى « الجدة » [لجريلپارتسر] أو غيرها من مأسويات القدر المحدثة زهدنا فى نتاج لم يمله سوى هو صاحبه . وقصة الملك أوديب تشتمل حقيقة فى طياتها على عامل من هذا القبيل : فما يحركنا مصيره إلا لأنه مصير قد كان يمكن أن نصير إليه ، لأن النبوءة قد صَبت علينا — ولما نولد — تلك الدعوة التى صُبت عليه ؛ فلعله قد قدر علينا أجمعين أن نتجه بأول نزوعنا الجنسى جهة الأم وبأول البغضاء ورغبة الدمار جهة الأب ، وأحلامنا تقنعنا بأن الأمر كذلك . فما عدا أوديب الملك الذى قتل أباه لايوس وتزوج أمه يوكاستا أن يحقق رغبات من طفولتنا . بيد أننا ونحن أسعد منه حظا قد نجحنا فى أن نتحول بنوازعنا الجنسية عن أمهاتنا وفى أن ننسى غيرتنا من آبائنا — نجاحاً يقاس بمقدار نجاحنا فى ألا نصير عصابيين . ولكن ، ها هو ذا البعض تحققت عنده هذه الرغبات وليدة الزمن الأول : إن الرعدة لتسرى فينا وإنا لندبر بعدا عنه ، لا تدخر فى ذلك طاقة من الكبت الذى ألجم منذ إذ ذاك هاته الرغبات فى دخيلتنا . فالشاعر إذ يخرج إلى الضوء — بينا ينقب فى الماضى — جرمَ أوديب هذا لا يترك لنا محيصاً عن أن نعرف دخيلتنا ، دخيلتنا التى لا تفتأ هاته الدفعات ماثلة فيها وإن قمعت . والتقابل الذى تودعنا الجوقة على صورته :

« أنظروا أوديب هذا ، من حل اللغز الذائع الصيت وكان رجلا فاق الرجال اقتداراً ، من كان المواطنون جميعاً يرمقون حظه فى حسد ، أنظروا فى أى بحر من الشقاء يقذف به! »[١] هذا التقابل تحذير يصيبنا ويصيب كبرياءنا ، نحن الذين صرنا — فى اعتقادنا — على هذه الدرجة من الحكمه ومن القوة منذ أن شيعنا سنى الطفولة ؛ فنحن نعيش — مثل أوديب — على جهل بهذه الرغبات المنافرة للأخلاق ، التى فرضتها الطبيعة علينا ، ولئن كشفت لأردنا أيضاً لو نغمض الطرف عن مشاهد طفولتنا .[٢]

فأما أن أسطورة أوديب قد نبعت من مادة حلمية قديمة أزلا ، متصلة بهذا الاضطراب الأليم الذى ينتاب علاقة الطفل بوالديه من جراء نزعاته الجنسية الأولى — ذلك ما يجد فى نص مأسوية سوفوكليس إشارة لا شبهة فيها . فها هى ذى يوكاستا ترفه عن أوديب — ولم يكن قد استنار بعد ولكن ذكرى النبوءة أخذت تشيع الاضطراب فى نفسه — فإذا هى تشير إلى حلم يأتى حقيقة أناسا كثيرين لكن دون أن يعنى ذلك — فى زعمها — شيئاً :

« كم من مائت قبلك ضاجع فى الحلم أمه ، ولكن يسهل عبء العيش لمن لم يلق إلى ذلك بالا . » (سطر ٩٨٢ وما بعده .)

واليوم كما فى ذلك الوقت يحلم الكثيرون بمضاجعة الأم ويروون أحلامهم مستنكفين ، متعجبين . ومن السهل أن نفهم أن هذا الحلم هو مفتاح المأسوية والجزء المكمل للحلم بموت الأب . فقصة الملك أوديب استجابة من المخيلة إلى هذين الحلمين النمطيين جميعاً . وكما أن هذه الأحلام تصحبها — حين تقع للراشدين — مشاعر شتى من النفور فقد حق كذلك أن تضم الأسطورة فى طياتها الارتياع وإيقاع العقاب بالنفس . وأما التحوير الذى يجىء بعد ذلك فمنشأه مرة أخرى أن المادة تراجع هنا أيضاً مراجعة ثانوية خاطئة تهدف إلى استخدامها فى أغراض لاهوتية . (أنظر مادة أحلام الاستعراض فى ص ٢٦٠

---

(١) [سطر ١٥٢٤ وما بعده .]

(٢) ليس بين مكتشفات التحليل النفسى ما لقى من النقاض المرور ومن المدافعة المستميتة — ومن الحذلقة النقدية الطريفة كذلك — ما لقيته هذه الإشارة إلى النزوع الطفلى الذى يظل متبقيا فى اللاشعور إلى الزنا بالمحارم بل لقد حاول البعض أخيراً — رغم كل ما تظهره التجربة — ألا يتركوا للزنا بالمحارم غير قيمة « رمزية » . — هذا وقد أتى فرنتسى (١٩١٢) بتفسير إضافى بارع لأسطورة أوديب اعتمد فيه على فقرة من خطاب لشوبنهاور . كما ظهر من مواصلة البحث أن لـ « مركب أوديب » الذى أشير إليه للمرة الأولى فى هذه الفقرات من « تفسير الأحلام » أهمية لم نكن نحلم بها فى فهم التاريخ الإنسانى وتطور الدين والأخلاق (أنظر : الطوطم والتابو ، ١٩١٣) .

وما بعدها .) ولكن كان من الحتم أن تخفق محاولة التوفيق بين القدرة الآلهية المطلقة وبين المسؤلية الإنسانية ، فى صدد هذا الموضوع كما فى غيره .

وهناك مأثرة أخرى من مآثر الشعر المأسوى تضرب جذورها فى ذات التربة التى تضرب فيها أوديب ملكا : تلك هى «هاملت» شكسبير . بيد أن المعالجة المختلفة للمادة الواحدة تجلو لنا كل الفرق فى الحياة النفسية بين هذين العصرين المتباعدين تباعداً كبيراً من عصور الحضارة ، وأعنى بهذا الفرق تقدم الكبت عبر القرون فى الحياة العاطفية للبشرية. فى «أوديب» يظهر جهارا ذلك التخييل الذى يجيب رغبة الطفل والذى تقوم عليه المأسوية ، ويتحقق كما قد يتحقق فى حلم . فأما « هاملت » فيظل فيها هذا التخييل مكبوتا ، ولا نعلم عن وجوده شيئاً إلا بما يظهر من عواقب كفه — شأن الحال مع العصابيين . والعجيب أنه يتبين أن ما تملكه المأسوية الأحدث من وقع طاغ فى نفوس الناس لا يتعارض مع بقائهم من أمر طبع البطل فى ظلمة مطلقة . فالمسرحية تقوم على تردد هاملت فى إنفاذ الانتقام الذى وكل إليه ، ولكن ما هى أسباب هذا التردد أو دواعيه ، ذلك مالا ينبس النص بحرف عنه وبذلت فى تفسيره محاولات لا تحصى فما أتت بطائل . فهاملت فى نظرة أصلها جوته[1] ولا تزال لها الغلبة حتى اليوم يمثل هذا الطراز من الرجال الذين شلت عندهم القدرة على العمل المباشر : شلها نمو العقل نموا مفرطا (« أسقمه الفكر الشاحب ») . وفى نظره أخرى أن الشاعر قد أراد أن يصور لنا طبعاً مريضاً مذبذبا شارف النوراستانيا . بيد أن المسرحية ترينا أن هاملت بعيد كل البعد عن أن يصور فى صورة إنسان فقد كل قدرة على العمل . فنحن نراه يعمل مرتين : الأولى فى فورة مباغتة حين يطعن السامع المسترق من وراء الستار ، وأما الثانية فعن قصد مبيت بل فى مكر جم ، وذلك حين يرسل برجلى البلاط إلى الموت الذى كان مدبراً له هو ، مبدياً فى ذلك كل التحلل الخلقى الذى يمكن أن يتصف به أمير من أمراء عصر النهضة . فما الذى يوقفه على هذا النحو فى إنفاذ المهمة التى كلفه شبح أبيه إياها ؟ الجواب نجده مرة أخرى فى الطبيعة الخاصة لتلك المهمة . إن هاملت يستطيع أن يأتى كل شىء إلا أن يثأر من الرجل الذى أزاح أباه واحتل مكانته عند أمه ، الرجل الذى يريه — إذن — رغباته الطفلية وقد تحققت . وهكذا يحل عنده محل الاستبشاع الذى كان كفيلا أن يدفعه إلى الانتقام تأنيب النفس

---

(١) [« ڤيلهم ما يشتر » ، سنوات التعلم ، الكتاب الرابع ، الفصل ١٣ .]

وتخوف الضمير يذكرانه أنه لا يفضل بحرف ذاك الخاطئ الذى كلف عقابه . وأنا إذ أقول ذلك أترجم فى عبارة شعورية ما كان مقرراً بقاؤه لا شعورياً فى نفس البطل . فإن أراد البعض أن يدعو هاملت هستريا ، لم أجد إلا أن أسلم بأن تلك نتيجة تخرج من تفسيرى . ويتسق وذلك أحسن الاتساق ما يعرب عنه هاملت فى حديثه مع أوفيليا من نفوره من الحياة الجنسية ؛ هذا النفور الذى كان مقدراً أن يزيد على الدوام تمكنا من نفس الشاعر فى مستأنف سنواته حتى بلغ التعبير عنه أقصاه فى « تيمون الأثينى » — فما يطالعنا فى هاملت بالطبع سوى الحياة النفسية للشاعر . وإنى لألحظ فى كتاب جورج براندس (١٨٩٦) قوله : إن شكسبير كتب هذه المسرحية فور موت أبيه (١٦٠١) أى حين كانت وطأة الحزن عليه فى أشدها وحين بعثت فى نفسه من جديد — كما يحق لنا افتراضه — مشاعره الطفلية نحو والده . ومن الأمور المعلومة كذلك أن ولد شكسبير الذى مات فى سن مبكرة كان يحمل اسم هامنت (وهو ما يطابق هاملت) . وكما أن هاملت تعالج العلاقة بين الابن والوالدين ، كذلك تدور « ماكبث » المكتوبة قرب تلك الفترة حول موضوع العقم من الخلف . هذا ، سوى أنه كما أن جميع الأعراض العصابية — شأن الحلم ذاته — تقبل أكثر من تفسير واحد ، لا بل هى تقتضى مثل هذا التفسير المضاعف إذا نحن أردنا أن نفهمها حق الفهم ، كذلك كل خلق فنى صادق : فهو يصدر عن أكثر من دافع واحد وعن غير هائج واحد بنفس الشاعر ، وهو يفسح المجال لأكثر من تفسير . فما حاولت هنا إلا أن أفسر هذه الطبقة من الدوافع التى ترسب فى قرارة النفس عند الشاعر الخلاق [١] .

ولست أستطيع أن أترك الأحلام النمطية بموت الأقرباء المحببين دون أن أضيف بضع كلمات أوضح بها دلالة هذه الأحلام بالنسبة إلى نظرية الحلم عامة . فهذه الأحلام تطالعنا بوضع لم نألفه قط ، وهو أن فكرة الحلم التى أملتها الرغبة المكبوتة تفلت من كل رقابة وتظهر فى الحلم من غير ما تحريف . فلا بد أن تكون هناك شروط خاصة تجعل ذلك أمراً ممكناً . وأعتقد أن العاملين الآتيين هما اللذان يعينان على وقوع هذه الأحلام :

---

(١) [١٩١٩ :] هذه الإشارات إلى فهم تحليلى نفسى لهاملت قد أتماها إرنست جونز بعد ذلك ودافع عنها (أنظر جونز ١٩١٠ أ) . [١٩٣٠ :] هذا ولقد انتهيت فى هذه الأثناء إلى شك مطلق فى صحة المسلمة المتضمنة فى هذا الكلام ، وهى أن يكون مؤلف أعمال شكسبير هو الرجل المولود فى ستراتفورد . [١٩١٩ :] ويجد القارئ محاولات أخرى فى تفسير ماكبث فى مقالى (١٩١٦ ج) وكذلك فى مقال آخر بقلم يكلز (١٩١٧) .

العامل الأول هو أننا نعتقد أن هذه الرغبة أبعد ماتكون عنا ، أنها « لا تخطر لنا ولو فى الحلم » ، ولهذا ظلت الرقابة على الحلم غير معدة لمواجهة هذه الشناعة ، على نحو ما ظلت شرائع صولون من غير نص على عقاب من قتل أباه . والعامل الثانى هو أنه يكثر بنوع خاص فى هذه الحالة أن يذهب إلى لقاء تلك الرغبة الممنوعة غير المتوقعة أثر من اليوم السابق فى صورة القلق على حياة شخص عزيز : هذا القلق لا يستطيع أن ينفذ إلى الحلم إلا إذا استغل تلك الرغبة التى تلتقى به فى منتصف الطريق ، بينما تستطيع تلك الرغبة من ناحيتها أن تتقنع بقناع ذلك القلق الذى اختلج فى أثناء النهار . فإن ارتأى البعض أن الأمر أبسط من ذلك كثيراً وأن الأمر لا يعدو أننا نتابع فى الليل وفى أحلامنا ما شغلنا به فى نهارنا ، فإن صاحب هذا الرأى يترك الحلم بموت الأحياء من غير رباط يجمعه بنظرية الحلم عامة ، وهو بذلك يتشبث من غير داع بلغز يقبل الحل كل القبول .

ومن المفيد كذلك أن نتأثر علاقة هذه الأحلام بأحلام الهيلة . فإن الرغبة المكبوتة قد تمكنت فى الأحلام التى يموت فيها من نحب من أن تجد وسيلة تفلت بها من الرقابة ومن التشويه الذى تفرضه هذه الرقابة ، ولا يكون ذلك دون أن يستشعر الحالم فى أحلامه مشاعر أليمة . وأحلام الهيلة إنما تنشأ على هذا النحو عينه حين تكتسح الرقابة اكتساحاً شاملا أو جزئياً — هذا من جهة — ، بينما نجد — من جهة أخرى — أن اكتساح الرقابة يسهل حين تكون الهيلة قائمة بالفعل فى صورة إحساس خامد ناشط منبعث من مصادر جسمية [أنظر ص ٢٥٤] . وهكذا يتضح كل الوضوح أى غرض تقوم الرقابة من أجله بوظيفتها ، ولأى غرض تشوه الحلم : ذلك لكى تحول دون تمخض الهيلة وغيرها من الحالات الوجدانية الأليمة .

* * *

لقد تحدثت فيما سبق [أنظر ص٢٦٧] عن أنانية النفس الطفلية . وأردف الآن — لكى أشعر بالصلة — أن الأحلام كذلك تتسم بهذا الطابع عينه . فالأحلام فى جملتها على أنانية مطلقة ، والأنا المحبوب يظهر فيها جميعاً وإن تقنع . والرغبات التى تتحقق فيها من غير استثناء رغبات هذا الأنا عينه . وإذا لاح أن الاهتمام بالغير قد أثار حلما ، فما ذلك إلا مظهر خادع . وهأنذا أحلل بضعة أمثلة تبدو مناقضة لما أقول .

١

روى طفل لم يبلغ الرابعة : أنه رأى طبقاً كبيراً ازدحم بالخضر وعلته شريحة كبيرة من اللحم المشوى . ابتلعت الشريحة دفعة واحدة دون تقطيع . لم ير الحالم من أكلها[1] .

من هو يا ترى هذا الشخص المجهول الذى أتحفه حالمنا الصغير بتلك الشريحة الفاخرة ؟ لا شك فى أن خبرة اليوم السابق تلقى الضوء على ذلك : فالطفل كان منذ بضعة أيام لا يغتذى إلا باللبن خضوعاً لأمر الطبيب ، وهو بالأمس قد جاوز الحد فى « الشقاوة » فكان عقابه الحرمان من وجبة العشاء . ثم إنه كان ذا خبرة سابقة بعلاج الحمية هذا وأظهر فى احتماله شجاعة كبيرة : كان يعرف أنه لن يحصل على شىء من الطعام ولكنه لم يكن يبيح لنفسه أقل إشارة إلى جوعه ، ولو بكلمة واحدة . والتربية إذن كانت قد أخذت تحدث أثرها فيه . وإنها لتفصح عن نفسها فى هذا الحلم الذى تظهر فيه بواكير التشويه . فلا شك فى أنه هو هذا الشخص الذى تتجه رغائبه إلى مثل هذه الوجبة الحافلة — وأى وجبة ! وجبة من اللحم . ولكنه وهو يعلم أن ذلك محرم عليه لا يجرؤ على الجلوس إلى المائدة كما يفعل الأطفال الجائعون فى أحلامهم (أنظر حلم ابنتى الصغيرة آنا بالكريز ، ص ١٥٥) . وهكذا يظل الآكل مجهولا .

٢

حلمت مرة أننى أرى فى واجهة إحدى المكتبات مجلداً جديداً من إحدى هذه السلسلات التى اعتدت شراءها والتى تنشر من أجل الهواة فى موضوع بعينه (كبار الفنانين ، تاريخ العالم ، أشهر المدائن . ، الخ .) . وكان عنوان السلسلة الجديدة هو

(١) إن ما يظهر فى الحلم من ضخامة الأشياء وكثرة مقاديرها ومن المبالغة بوجه عام أمر يمكن اعتباره خاصة أخرى من الخصائص الطفلية . فليس بين رغبات الطفل ما هو أشد من رغبته فى أن يصير كبيراً وفى أن يحوز من كل شىء مقدار ما يحوزه الأكبرون . والطفل صعب الإرضاء، لا يعرف القناعة ولا يشبع من الإلحاح فى تكرار تلك الأشياء التى سر بها أو أعجبه مذاقها . والتربية وحدها هى التى تعلمه الاعتدال والقناعة والنزول عن رغباته . ومن المعروف أن العصابيين كذلك ينزعون إلى الإغراب ومجانبة الاعتدال .

« أشهر الخطباء » أو « الخطب » ، وكان أول مجلداتها يحمل اسم الدكتور ليشر .

عندما أخذت أحلل هذا الحلم بدا لى أمراً بعيداً عن الاحتمال أن أشغل فى أحلامى بشهرة الدكتور ليشر ، هذا المتحدث الذى لا يفرغ من الكلام باسم المعارضة الألمانية فى البرلمان . وحقيقة الأمر هى أننى قد أخذت من أيام قلائل فى علاج بعض المرضى الجدد ، وهكذا أصبحت اليوم مضطراً إلى التحدث عشر ساعات أو إحدى عشرة ساعة فى اليوم . فأنا أيضاً متكلم لا يفرغ .

٣

وحلمت فى مرة أخرى أن بعض معارفى من أعضاء هيئة التدريس يقول : يا بنى ، ضعيف النظر . ثم يعقب ذلك حوار مؤلف من جمل قصيرة وردود عليها . ولكن هذا الحوار قد أعقبه أيضاً جزء ثالث من الحلم أظهر فيه أنا وأبنائى ، وليس الأستاذ م . وابنه — من حيث يتصل الأمر بالمحتوى الكامن للحلم — إلا شبحين قصد بهما إلى تغطيتى أنا وابنى الأكبر . وسأعود إلى هذا الحلم مرة ثانية لخاصة أخرى فيه [ص ٤٤٠ وما بعدها] .

٤

ويضرب لنا الحلم الآتى مثالا على مشاعر أنانية خسيسة استترت وراء قلق رؤوف : يبدو صديقى أوتو معتل الصحة ؛ فوجهه مسود وعيناه جاحظتان .

إن أوتو طبيب أسرتى ودينى نحوه يفوق كل ما أطمع فى أن أجزيه به ؛ فهو يسهر على صحة أبنائى منذ سنوات ويعالجهم فى مرضهم علاجاً شافياً ، وهو بعد هذا كله لا يدع فرصة تمر دون أن يهدى إليهم شيئاً . [أنظر ص١٤٤ .] واتفق أنه زارنا فى يوم الحلم ولاحظت زوجى أنه يبدو متعباً مستنفد القوى . وفى الليل أحلم به وأعزو إليه فى الحلم بعضاً من أعراض مرض بازدوف . إن من يتعرض لتفسير هذا الحلم غير ملتفت إلى قواعدى سوف يخلص إلى أننى كنت فى قلق على صحة صديقى وأن هذا القلق يتحقق فى الحلم . والحلم إذن لا ينقض رأيى فى أن الأحلام تحقق رغبات وحسب ، إنه ينقض

كذلك قضيتى الأخرى : أن الأحلام لا تعرف غير الدوافع الأنانية . ولكن هلا يبين لى من أخذ بهذا التفسير لم خشيت على أوتو من مرض بازدوف — وهو تشخيص ليس فى مظهر أوتو الحقيقى أقل دليل عليه ؟ إن تحليلى يمدنى بالمادة الآتية التى ترجع إلى حدث وقع منذ ست سنوات خلت : كنا صحبة صغيرة ضمت الأستاذ ر . وكنا نركب فى حلكة الليل عربة تجتاز غابة ن . الواقعة على مسيرة ساعات من المكان الذى كنا نصيف فيه ، وفجأة قذف السائق — وكان ثملا بعض الشىء بالعربة وبمن فيها فى منحدر كان هناك ، ولولا حسن الحظ ما خرجنا جميعاً سالمين . غير أننا اضطررنا إلى أن نقضى الليل فى نزل قريب بلغته أنباء حادثتنا فأدرت علينا عطفاً كثيراً . وجاء سيد يحمل علائم لا تخطئ على مرض بازدوف — وكانت على التحديد اسودادا فى بشرة الوجه مع جحوظ العينين ولكن بغير تضخم الغدة الدرقية كما هو الحال فى الحلم تماماً — جاء يضع نفسه بكليته تحت تصرفنا ويسأل هل يستطيع أن يفعل شيئاً من أجلنا . فأجابه الأستاذ ر . بطريقته الحاسمة : لا شىء إلا أن تقرضنى قميصاً للنوم . وهنا أجابه رجلنا النبيل قائلا : « إنى آسف ، ولكن هذا هو مالا أستطيعه » ثم بارح الحجرة .

ولما تابعت تحليلى خطر لى أن بازدوف ليس اسم طبيب وحسب بل هو أيضاً اسم مرب معروف . (ولست أثق الآن وأنا مستيقظ من صحة هذه المعرفة [١] .) ولكن صديقى أوتو هو هذا الشخص الذى رجوت منه أن يعنى إذا ما أصابنى مكروه بالتربية البدنية لأبنائى ، وبخاصة فى سن المراهقة (ومن هنا قميص النوم) . وأنا — إذن — إذ أرى صديقى أوتو فى الحلم بأعراض صاحبنا ذى المروءة أهدف صراحة إلى أن أقول : لو أن مكروهاً أصابنى لأبدى من العون مثل ما أبداه البارون ل. فى هاتيك المناسبة رغم عروضه السخية . ولعل فى ذلك ما ينشر طية الأنانية فى هذا الحلم [٢] .

---

(١) [الواقع أنها معرفة صحيحة ؛ فبازدوف رجل من كبار رجال التربية فى القرن الثامن عشر .]

(٢) [هامش وضع عام ١٩١١ :] كان إرنست جونز يلقى فى جمعية أمريكية محاضرة علمية عن أنانية الحلم حين نهضت سيدة مثقفة تعترض على هذا التعميم غير العلمى قائلة : إن مؤلف هذا الكتاب لا يستطيع إلا أن يحكم على أحلام المنسوبين ، وليس له أن يتحدث عن أحلام الأمريكيين . وهى واثقة فيما يتعلق بها من أن جميع أحلامها أحلام غيرية خالصة .

[١٩٢٥ :] ويجمل بنا أن نضيف على سبيل المعذرة لهذه السيدة الوطنية أن من الواجب علينا ألا نخطىء فهم القضية القائلة بأن الأحلام أنانية على الإطلاق — لأنه إذا كان كل ما يطرأ على التفكير القبشعورى ممكن الورود فى الحلم (سواء فى محتواه الظاهر أم بين أفكاره الكامنة) ، فإن هذه الإمكانية تظل قائمة كذلك بالنسبة

ولكن أين تحقيق الرغبة ؟ إننا لا نجده فى الانتقام من صديق أوتو الذى قدر عليه — فيما يبدو — أن تساء معاملته فى أحلامى ، بل فى الملابسة الآتية : إذا كنت قد صورت أوتو فى صورة البارون ل. فإنى بهذا عينه أكون قد عينت شخصى أنا بآخر غيره، وأعنى به الأستاذ ر . ؛ فأنا أيضاً قد طلبت من أوتو طلباً مثلماً فعل الأستاذ ر . مع البارون ل . إبان تلك الحادثة . وهنا بيت القصيد : فالأستاذ ر . — وهو الذى ما كنت لأجرؤ فى الحقيقة على أن أقارن نفسى به لولا ذلك — قد شق أيضاً طريقة بعيداً عن العالم الأكاديمى ولم يحصل إلا بعد عمر طويل على لقب الأستاذية الذى كان يستحقه منذ أمد بعيد. وأنا إذن أبتغى مرة أخرى أن أصبح أستاذاً . لا ، بل إن هذه الكلمات ذاتها : « بعد عمر طويل » لتحقق هى أيضاً رغبة ؛ لأنها تعنى أننى سأعيش حتى أرى بنفسى أولادى وهم فى سن المراهقة .

وهناك أنواع أخرى من الأحلام النمطية[1] يطير فيها المرء مسروراً أو يسقط وهو يشعر بالهيلة : هذه أحلام ما عرفتها قط بخبرة شخصية وكل ما أستطيع قوله عنها إنما أستمده من التحليلات النفسية التى أجريتها . والدروس التى يتلقاها المرء من هذه التحليلات تلجئه إلى النتيجة الآتية : أن هذه الأحلام أيضاً تعيد انطباعات من انطباعات الطفولة ، إنها تتعلق على التحديد بألعاب حركية تجتذب الأطفال اجتذاباً فائقاً . فمن هو هذا العم الذى لم يُعِن طفلا على الطيران بأن يهرول به باسط الذراعين عبر الغرفة ، أو لم يتخذ من السقوط مادة لملاعبته ، فيجلسه على ركبته ثم يمد ساقه فجأة أو فيرفعه عالياً ثم يهيىء إليه بحركة مباغتة أنه يتخلى عنه ؟ والأطفال حينئذ يصيحون طرباً ولا يكلون من استعادة هذه الألعاب ، وبخاصة إذا احتوت على ما يحدث بعضاً من الخوف أو الدوار . وإنهم ليستعيدونها فى أحلامهم بعد أن تمضى بهم السنون، سوى أنهم يحذفون من الحلم اليد التى تمسك بهم بحيث يبدون اليوم كمن يطيرون أو يسقطون أحراراً . وولع الأطفال بأمثال هذه الألعاب — كولعهم بالأراجيح بأنواعها — أمر معروف . فإذا رأوا فى «السيرك» بعض الأفانين البهلوانية جددذلك عندهم ذكرى هذه الألعاب[2]. وقد لا تخرج

=إلى الدوافع الغيرية . وعلى هذا النحو عينه يستطيع دافع من العطف أو العشق تجاه شخص آخر أن يظهر فى الحلم إذا كان قائماً فى اللاشعور . وعلى هذا ينحصر صدق القضية الموردة فى النص فى كوننا نجد فى أحيان كثيرة جداً بين الحوافز اللاشعورية إلى الحلم نوازع أنانية يلوح فى حياة اليقظة أننا قد تغلبنا عليها .

(١) [يلحظ القارىء ههنا المفاجأة فى الانتقال من أحلام موت الأحباء إلى أنواع أخرى من الأحلام النمطية — وهو ما جعل ستراشى يضيف فى هذا الموضع عنواناً جديداً .]

(٢) [١٩٢٥ :] لقد أرانا البحث التحليلى أن هناك عاملا آخر — عدا اللذة المحسة فى الأعضاء ذاتها — يدفع إلى ولع=

النوبات الهستيرية عند الصبية عن أن تكون استحضاراً يتأدى فى مهارة بالغة لأمثال هذه الأفانين . كما أنه لا يندر أن تنبه هذه الألعاب الحركية — وإن كانت بريئة فى ذاتها — مشاعر جنسية[1] . وإذا جاز لى أن أستخدم تعبيراً دارجاً اعتدنا أن نطلقه على هذا النشاط بكافته ، قلت : إن « هيجان » الأطفال هو ما يستعاد فى أحلام الطيران والوقوع والتأرجح وما شابهها استعادة تنقلب فى خلالها اللذة إلى هيلة . ولكن هياج الأطفال كثيراً ما ينتهى فى الواقع كذلك بالشجار وبالدموع — كما تعرفه كل أم .

وأنا — إذن — أملك أسباباً طيبة أستبعد على أساسها النظرية القائلة : إن أحاسيسنا اللمسية فى أثناء النوم وكذلك الإحساس بحركة الرئتين وما أشبه — هى التى تبعث على أحلام الطيران والسقوط [أنظر ص ٧٥] ، بل فى رأيى أن هذه الأحاسيس ذاتها إنما تستحضر باعتبارها جزءاً من مقومات الذكرى التى يرتد إليها الحلم ، أى أن هذه الأحاسيس جزء من محتوى الحلم وليست مصادر له .

ولكننى لا أخفى عن نفسى بحال من الأحوال قصورى عن الإتيان بتفسير كامل لهذه الطائفة من الأحلام النمطية ؛ فالمادة التى عندى تتركنى حائراً فى هذه المسألة بالذات . إلا أننى — على أية حال — لا أرى بدا من الاستمساك بوجهة النظر العامة هذه : أن جميع الإحساسات اللمسية والحركية المتضمنة فى هذه الأحلام إنما تستدعى على الفور كلما احتاج إليها دافع نفسى ما ، وأن من الممكن إغفالها إذا لم تكن هناك مثل هذه الحاجة [أنظر ص٢٥٦ .] وكذلك العلاقة بين هذه الأحلام وخبرات الطفولة : إنها تبدو لى أمراً تقطع به الدلائل المتجمعة عندى من تحليل العصابيين . فأما ما هى سائر المعانى التى تجىء فى سياق الحياة فترتبط بذكرى هاته الإحساسات — وأرجح أن هذه المعانى

= الأطفال بالحركات البهلوانية وإلى استعادتهم إياها فى النوبات الهستيرية ، هذا العامل الآخر هو صورة ذكروية (يكثر أن تكون صورة لاشعورية) عن جماع لوحظ (بين الإنسان أو الحيوان) .

(١) تحدث إلى فى هذا الصدد زميل شاب خلا من كل أثر من الاضطراب العصبى فقال : " أعلم من خبرتى الشخصية أننى وأنا طفل كنت أستشعر إحساساً معيناً فى أعضائى التناسلية عند ما آخذ فى التأرجح ، وحين تبلغ الحركة الهابطة حدها الأدنى . وإنى وإن كنت لا أستطيع أن أقول : إننى كنت أسر بهذا الإحساس ؛ إلا أننى لا أجد بداً من وصفه بأنه كان إحساساً لذيذاً " . — وكثيراً ما سمعت من المرضى أن أولى انتصاباتهم المصحوبة باللذة والتى يستطيعون تذكرها قد أتتهم فى صباهم وهم يتسلقون — كما أنه يثبت من التحليل النفسى ثبوتاً لا يتطرق إليه الشك أن الدفعات الجنسية الأولى كثيراً ما تتأصل جذورها فى ألعاب المناوشة والمصارعة التى تقع فى سنى الطفولة .

تختلف باختلاف الأفراد مهما كان من ظهور هذه الأحلام على نحو نمطى — فذلك ما لا أعرف الجواب عنه ، وكم كنت أود لو كان فى استطاعتى أن أسد هذا النقص بتحليل بعض الأمثلة البينة تحليلا دقيقاً . فإن عجب البعض إذ يرانى أشكو نقص المادة فى هذا الصدد وليس أكثر من هذه الأحلام على التحديد — أحلام الطيران والسقوط ووقوع الأسنان، الخ . — أجبته بأن مثل هذه الأحلام لم تقع لى قط منذ أن وجهت انتباهى إلى موضوع تفسير الأحلام . وأما أحلام العصابيين فلا يسعنا دائماً — أو على الأقل لا يسعنا كثيراً — أن نمضى فى تحليلها إلى غاية معناها الخبىء ؛ فهناك قوة خاصة — قوة كان لها نصيبها فى تكوين العصاب أصلا وتتحرك إلى العمل حين نتعرض لحله — تحول دون تفسير الحلم حتى لغزه الأخير .

(ج) أحلام الامتحان

إن كل من اجتاز امتحان البكالوريا فى ختام الدراسة الثانوية يشكو من إلحاح هذا الحلم من أحلام الهيلة فى ملاحقته : أنه قد رسب فى الامتحان ، أو أنه مضطر إلى إعادته من جديد ، الخ . وأما الذين حصلوا على درجة جامعية فيحل عندهم محل هذا الحلم النمطى حلم آخر يخيل إليهم أنهم قد رسبوا فى امتحان الإجازة الجامعية ، وهو ما يعترضون عليه سدى وهم ما زالوا نياماً محتجين بكونهم يعملون منذ سنوات كأطباء أو محاضرين بالجامعة أو رؤساء أقلام : تلك ذكريات لا تُجْتَذَرعن ألوانمن العقاب لقيناها فى طفولتنا جزاء على سوء فعالنا ، ذكريات تبعث فى نفوسنا من جديد رابطةً نفسها بهاتين اللحظتين الحاسمتين فى تاريخ حياتنا المدرسية ، بـ « يوم الغضب ، ذاك اليوم » [1] ، يوم نمتحن أعسر امتحانين . وإلى هذه المخاوف الطفلية عينها يرجع اشتداد « هيلة الامتحان » عند العصابيين . فنحن بعد أن نفرغ من مرحلة التلمذة لا نرجع نلقى عقابنا على يد آبائنا أو أولياء أمورنا أو المدرسين من بعدهم ، وإنما يتكفل بتربيتنا فى مستأنف السنين هذا الرباط العلى الذى لا يرحم بين أحداث الحياة الواقعة . وها نحن أولاء

---

(١) ["dies irae, dies illa!" مطلع صلاة منثورة لا ترددها الكنيسة إلا يوم يموت أبناؤها . وهى تصف ساعة البعث للامتحان الأخير : " . . . الطبيعة والموت سوف يروعان يوم يقف الإنسان ليواجه القاضى الأعلى " — وإن انتهت بالإعراب عن الأمل فى حسن وساطة المسيح .]

نحلم اليوم بامتحان البكالوريا أو الإجازة الجامعية — ومن ذا الذى لم يرتعد إذ ذاك ولو كان مستعداً ؟ — كلما ارتكبنا خطأ أو قصرنا فى أمر فخشينا أن تأتى العاقبة بالعقاب ، أى كلما شعرنا بوطأة المسئولية .

ولأحلام الامتحان تفسير أعمق أدين به لملاحظة لاحظها أحد الزملاء المحنكين (وهو شتيكل) إذ أعلن مرة فى اجتماع علمى أن الحلم بامتحان البكالوريا لا يأتى — بقدر ما يعلم — إلا الذين اجتازوا هذا الامتحان بنجاح ، ولا يأتى أبدا أولئك الذين أخفقوا فيه . وهكذا يلوح أن أحلام الامتحان المصحوبة بالهيلة — وهى التى يثبت بالملاحظة تلو الملاحظة أنها تأتى المرء حين تنتظره فى الغد مسئولية يخشى الإخفاق فيها — يلوح أنها تتلمس مناسبة ماضية لم تجد فيها الهيلة الشديدة ما يبررها بل جاءت الحوادث بما يكذبها . وإذا كان الأمر كذلك ، كان هذا مثالا عجيباً على الخطأ الذى نقع فيه إذ نفهم محتوى الحلم بوساطة النظام المستيقظ [أنظر ص٢٦١] . فما نعده احتجاجاً على الحلم : « ولكننى طبيب بالفعل ، الخ . » هو فى الحقيقة العزاء الذى يحمله الحلم ، عزاء يخلق بنا أن نقرأه على هذا النحو : « لا تخش من الغد شيئاً ، أنظر أى هيلة تملكتك قبيل امتحان البكالوريا ، ومع هذا لم يمسسك شىء ، وها أنت ذا اليوم طبيب بالفعل ، الخ . » وأما الهيلة التى نعزوها إلى الحلم فقد تولدت فى الحقيقة من بقايا اليوم السابق .

وإن المحاولات التى استطعت إتيانها للتثبت من صحة هذا الرأى عندى وعند غيرى — وإن لم تكن كثيرة العدد الكثرة الكافية — قد أيدت صدق هذا الرأى . فأنا — مثلا — قد رسبت فى امتحان البكالوريوس فى مادة الطب الشرعى ، ولم يحدث قط أن امتحننى الحلم مرة ثانية فى تلك المادة على حين امتحنت كثيراً فى علوم النبات أو الحيوان أو الكيمياء ، وهى مواد كنت أذهب للامتحان فيها وبى هيلة كانت لها أسباب وجيهة ولكننى كنت أفلت من العقاب سواء بفضل الحظ أو بفضل الممتحنين . وأما فى الأحلام المتصلة بامتحانات الدراسة الثانوية فأرانى أمتحن دائماً فى مادة التاريخ وهى مادة نجحت فيها نجاحاً باهراً — وإن رجع الفضل فى ذلك إلى أن أستاذى ذا القلب الرحيم (غائثى ذو العين الواحدة فى حلم آخر ، ص٥٦) لم يفته أن يلحظ أننى حين أعدت ورقة الأسئلة إليه قد أعلمت بإظفرى ثانى الأسئلة الثلاثة المدونة فيها [للإجابة عنها شفهياً] تنبيهاً له

إلى أنه لا داعى إلى الإلحاح فى هذا السؤال . وأعرف مريضاً من مرضاى عدل عن دخول امتحان البكالوريا فى المرة الأولى ثم عاد بعد ذلك فأداه بنجاح ، ولكنه أخفق فى امتحان الكلية الحربية ولم يفلح قط فى أن يكون ضابطاً : هذا المريض يخبرنى أنه يحلم فى أحيان كثيرة بالامتحان الأول ولكنه لا يحلم أبداً بالثانى .

هذا ، ونحن نواجه فى تفسير أحلام الامتحانات تلك الصعوبة التى قلت من قبل [ص٢٥٩] إنها خاصة من خواص غالبية الأحلام النمطية : فالمادة التى تزودنا بها مستدعيات الحلم لا تكفى فى تفسير لحلم إلا نادرا ، ولسنا نستطيع الوصول إلى فهم هذه الأحلام فهما أوفى إلا بجمع عدد ضخم من أمثلتها . ولقد انتهيت منذ زمن غير بعيد إلى تلك النتيجة المستيقنة ، وهى أن قول الحلم : « ولكنك طبيب حقيقة ، الخ . » لا يضمر العزاء وحسب ، بل هو يتضمن لوماً مؤداه : « إنك اليوم رجل كهل تقدمت بك السنون ، وأنت مع هذا لا تنقطع عن ذلك العبث الطفلى الأخرق » . وهذا المزيج من نقد النفس وتعزيتها هو الذى يعرب فى رأيى عن محتوى الحلم الكامن . وعلى ذلك لن يكون أمراً عجبا إذا وجدنا أن ما يجىء فى الأمثلة التى حللناها أخيراً من لوم على « الخرق » و « العبث الطفلى » إنما يتعلق فى الحقيقة باستعادة أفعال جنسية محرمة .

ولقد كان من رأى شتيكل — وهو الذى أتى بأول تفسير لأحلام البكالوريا[1] — أن هذه الأحلام تلمح من غير استثناء إلى الامتحان الجنسى والبلوغ الجنسى . وكثيراً ما دعمت خبرتى صحة هذا الرأى .

---

(١) [« البكالوريا » فى الألمانية =Matura ، وهو من اللاتينية بمعنى « النضج » أو « البلوغ » .]